



النهضة

"Renaissance"

الدكتور كمال مظهر احمد

منشورات وزارة الثقافة والفنون

الجمهورية العراقية

١٩٧٩

المؤلف في سطور
كمال مظهر أحمد

- ولد في السليمانية سنة ١٩٣٧
- تخرج في كلية الآداب بجامعة بغداد بمرتبة الشرف عام ١٩٥٩
- نال شهادة الدكتوراه في أكاديمية العلوم السوفيتية عام ١٩٦٣
- نال شهادة دكتوراه (تألك) (العلوم) في المؤسسة نفسها عام ١٩٦٩
- يعمل استاذاً مساعداً في قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة بغداد
- نشر عدة مقالات وبحوث باللغات العربية والكردية والروسية
- من مؤلفاته :
- كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى أسوارها على تضاريسها في الشرق الأوسط



مقدمة

تحتل النهضة "Renaissance" مكانة
جد بارزة في تاريخ أوروبا ، بل في كل التاريخ
الحضاري الانساني لما قدمت من جديد في مجالات
الابداع الفكري والفني ولما أحدثت من تغيير في نظرة
الانسان للحياة وفي تقييماته لمظاهرها بحيث انها
(النهضة) غدت تشكل نقلة كبيرة ذات مضمون
شامل في مسيرة التطور البشري تعدت آثارها حدود
القارة الاوروبية بشكل يحس المرء حتى اليوم
باشماعاتها الثيرة اينما كان . فقد تمخضت النهضة
عن احياء القديم وتطوير ما كان قائما وتدشين
بدايات رائعة في حقول شتى من المعرفة الانسانية .
من هنا لم يكن عبثا أن اطلق المفكرون اسمها على
عصر كامل من تاريخ أوروبا ، لا يزال المؤرخون
وغيرهم من الباحثين يجسدون في سبر افواره ،
وحسبما يبدو فان هذه المهمة الجبيلة لن تنتهي لان
كنز النهضة العامر يدخل في عداد اللامنتهي .

اذن لابد لكل مثقف من ان يكون على المام
كاف بتاريخ النهضة الاوروبية ، ظروف ميلادها
ومنجزاتها الاصلية في مجالات شتى فنية وادبية
وعلمية . وثمة نقطة اساسية اخرى تجمل من
دراسة النهضة واستيعاب تجاربها مهمة ملحة يقع
انجازها على عاتق المختصين . فهناك شبه كبير بين
احداث اوروبية كثيرة طفت على السطح في عصر
النهضة ومايجري الان فوق مسرح اقطار العالم الثالث
من احداث ومتغيرات سريعة مع الاخذ بالحسبان
فارق الزمن والمكان . لذا فان بمستطاع ابناء شعوب
عالمنا الثالث ، وبخاصة من يدخل منهم في عداد قادة
الرأي والفكر واصحاب القلم ، ان يستنبطوا دروسا
جديرة من ذلك التاريخ الحافل .

تستهدف هذه الدراسة تقديم صورة مركزة
عن الخلفية التاريخية التي افضت الى خلق النهضة
مع تحديد مراحلها وخصائصها ونتائجها الى جانب
عرض سريع لابداعات عدد من كبار اعلامها الافذاذ
ليصبح في الامكان القاء ضوء اكثر على اهم جوانب
هذا الموضوع الشيق والشاق .

الفصل الاول

اوروبا على مشارف عصر جديد

عاشت القارة الاوروبية قرونا طويلا اتسمت
الى حد كبير بالتخلف والظلام والتزمت ، اتفق
المؤرخون على تسميتها بالعصر الوسيط الذي امتد ،
في رأي بعضهم ، حتى اواسط القرن الخامس عشر
وفي رأي الاخرين منهم الى اواسط القرن السابع
عشر . ومهما يكن من امر تحديد الاطار الزمني
لهذا العصر فان اواخره ، التي غطت فترة زمنية
غير قصيرة ، شهدت بوادر تغييرات مهمة نقلت
القارة الاوروبية الى عصر حافل جديد وضعتها
احداثه في وضع متميز عن معظم مناطق العالم
الاخرى التي كان يعيش بعضها حياة بدائية ، كما
كان عليه الامر في القارتين الامريكيتين عند
اكتشافهما ، ودخل بعضها الاخر مرحلة الاقطاع
لتود فكانت العلاقات البترياركية (الابوية) تحتفظ
في مجتمعاته بقوة اساسية مثلما كان الوضع في

تحول إلى عنصر أساس في تسريع عملية انحلال القاعدة الاقتصادية لذلك المجتمع الذي أخذ يلفظ القديم ويتلقف الجديد . بدأت عملية التحول هذه بطيئة لتفدو أسرع فأسرع مع تقادم الزمن وبفعل محركات فرضت نفسها كموامل مؤثرة ثابتة . فقد حدثت طفرة نسبية في تطور وسائل الانتاج الحرفي والزراعي الأوروبيين خلال الفترة الممتدة بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر عندما بدأ الفلاحون والحرفيون الأوروبيون يشتمعون ، بالرغم من ثقل الاستغلال الاقطاعي الواقع عليهم ، بنوع من امكانيات التصرف الذاتي والاستفادة المتزايدة من نتاج عملهم فأصبح بإمكانهم ان يولوا تطوير وسائل عملهم اهتماما اكثر بقصد تحقيق فوائد أكبر ، فتراكمت تجاربهم التي افضت الى تطوير متزايد لتكنيك الانتاج . وهكذا لم يحل القرن السادس عشر حتى حدثت تغييرات عميقة في الانتاج المادي لاقطار عديدة في غرب القارة الأوروبية ووسطها .

ادى هذا التقدم في الانتاج المادي الى تسريع عملية تراكم رأس المال في البلدان الأوروبية بوتائر لم يعرفها التاريخ سابقا ولم تجارها فيها آنذاك أي بقعة أخرى في العالم . ومن المهم ان نلاحظ ان هذه العملية لم تعتمد في البداية على تطور الانتاج في الريف والمدينة وازدياد الارتباط بينهما ، وعلى

مناطق أفريقية وحتى اسبوية واسعة ، وغدا بعضها الثالث ، وتقصد به شرقنا المريق ، يعيش جزرا حضاريا خطيرا بعد ان دشن اللبئات الاولى في اساس الحضارة الانسانية ودفع بعجلتها خطوات كبيرة على درب النمو والتكامل .

شهدت القارة الأوروبية (لا سيما الاجزاء الغربية منها) في فجر عصرها الجديد احداثا تاريخية - اجتماعية وفكرية في غاية الاهمية تحتل النهضة فيها مكانة بارزة . ولم تكن الاستكشافات الجغرافية الكبرى وحركة الاصلاح الديني والثورات البورجوازية الجارفة والتطورات العلمية الخلاقة وغيرها من المظاهر المهمة الجديدة اقل اهمية من النهضة ، فجميعها كانت تشكل حلقات متصلة لسلسلة واحدة تركت آثارا عميقة على مجمل التاريخ الانساني . وبطبيعة الحال لم تقع كل هذه الاحداث بصورة عفوية او اعتباطية ، بل انها جاءت بمثابة تعبير طبيعي عن تغييرات عميقة بدأت تأخذ مكانها - بحكم عوامل محددة - في قاعدة المجتمعات الأوروبية الغربية قبل غيرها فانقل إليها الثقل الحضاري لتبدأ من حيث وصل الشرفيون .

قبل كل شيء بدأت العلاقات الرأسمالية الجديدة تظهر وتنمو في رحم المجتمع الاقطاعي الأوروبي في القرون الأخيرة من العصر الوسيط مما



(الانتلجيسيا (١) البورجوازية) هي التي وقع على عاتقها القسط الأكبر من مهمات التطوير المادي والفكري الأوروبي في المرحلة الجديدة . فإبناء هذه الفئة هم أكثر الناس الذين أسهموا في تطوير وسائل الإنتاج عن طريق الاختراعات الحديثة ، وهم الذين قاموا بصياغة أفكار الطبقة البورجوازية في إطار فلسفي واستنبطوا النظريات والأفكار الاقتصادية الجديدة التي كان من شأنها هز أركان المجتمع الإقطاعي القائم بشكل ينحسر عن المسرح بأسرع ما يمكن ليحل محله مجتمع أكثر تطوراً بما لا يقاس .

وكان منطقياً أن يأخذ إبناء هذه الفئة بين أيديهم قيادة دفعة الحركة الثقافية - العلمية - الفكرية العظيمة في عصر النهضة . وقد فرضت حاجات المجتمع الجديد على هؤلاء توجهاً شاملاً وأكبر إلى حد لا يقاس بالمرحلة السابقة ، نحو الثقافة الدنيوية . وعلى سبيل المثال لا الحصر نورد هنا مثلاً واحداً كمؤشر مقنع لهذه الحقيقة الثابتة . فإن نمو الإنتاج السريع وازدياد دور النقد في التعامل والتطور التجاري المتشعب الذي أصبح يعتمد على عقد الصفقات والقروض والتنافس الحاد

(١) مشتقة من الكلمة اللاتينية «انتلجيس» التي تعني الوهوب والتقدير أو العليم والفاهم .

تقدم التجارة الخارجية فحسب ، بل واعتمدت كذلك على عنصر بشري مهم نجم عن تحول الآف مؤلفة من الفلاحين الذين فقدوا كل مصدر للعيش في الريف إلى أيد عاملة رخيصة للغاية ضمنت لأصحاب الورشات الجديدة أرباحاً طائلة اعطتهم إمكانات أوسع لتطوير مؤسساتهم .

ومن جراء هذه العوامل وغيرها شهدت أواخر العصر الإقطاعي الأوروبي ميلاد طبقات وقصات اجتماعية جديدة تحولت إلى لوب التغيير في القارة ذلك لأنها كانت لها مصالحها وطموحاتها التي اصطدمت مباشرة بما كان يسود أوروبا من قيسم وأفكار غدت بالية إلى حد أصبح من المتعذر التعايش معها . ففي أواخر القرن الخامس عشر ظهرت العناصر الأولى للبورجوازية كطبقة في عدد من المجتمعات الأوروبية الغربية وهي بدأت تتطور بسرعة بحيث لم يمر أكثر من قرن عندما تحولت في انكلترا ، مثلاً ، إلى طبقة متكاملة من جميع الأوجه تقريباً .

لعبت المراتب المختلفة للطبقة البورجوازية دوراً أساسياً في التغييرات السريعة التي شهدتها القارة الأوروبية على أصعدة شتى اجتماعية واقتصادية وفكرية ، إلا أن الفئة المثقفة البورجوازية

وبأسلوب لا يخلو عن عمق فلسفي منهم الثوري
الاماني توماس مونزير (١٤٩٠ - ١٥٢٥) والمفكر
الفرنسي جان ميسليه (١٦٦٤ - ١٧٢٩) .

تكونت في المرحلة نفسها الطبقة العاملة في
الاقطار الاوروبية ، وجاء تكونها على حساب الفلاحين
المعدمين الذين جردوا من الارض وكل مصدر آخر
للعيش في الريف ، ومن الحرفيين الصغار الذين
فقدوا امكانات العمل في ظل الانتاج الرأسمالي
الاكثر كما والاجود نوعا والارخص سعرا مما كانوا
ينتجونهم . ولقد مرت الطبقة العاملة ، مثل
البورجوازية ، بمراحل مختلفة الى ان تبلورت
وتكاملت في النهاية . ففي البداية ظل العمال
الاجيرون يشكلون جزءا صغيرا في الكيان الاجتماعي
حتى في اكثر الاصقاع الاوروبية تطورا . وتكونت
بالتدرج بروليتاريا (٢) الورشات التي ظل معظم

(٢) من الكلمة اللاتينية "Proletarii" التي تعني
(الارث) و (الورثة) . استخدمت كمصطلح اجتماعي
لاول مرة في عهد الرومان . فموجب الإصلاح الاداري
الذي قام به القيصر سيرفيوس تيلليوس تم تقسيم المجتمع
الروماني في القرن السادس قبل الميلاد الى خمس فئات
اجتماعية حسب امكانات المرادها المادية ، وقد وزعت
مقاعد مجلس الشعب عليها حسب اساس نسبي . ولكن
بقيت فئة معدومة لم ترث شيئا في الاصل فاطلقت عليها

←

وعوامل اخرى كثيرة ادت الى ظهور مشاكل ونزاعات
اقتصادية ومالية لا تحصى بين مختلف اصناف
التجار واصحاب الورشات والمحلات الحرفية
والمخترعين وغيرهم الذين اصبحوا بحاجة ملحة الى
عون المحامين لايجاد مخارج وحلول قانونية وعملية
لمشاكلهم المعقدة . وهذا بالذات يفسر لنا لماذا اصبح
المحامون يشكلون جزءا كبيرا ومؤثرا للغاية من
الانتلجنسيا البورجوازية .

من الضروري ان نشير هنا الى حقيقة اخرى
ترتبط بالانتماء الاجتماعي لانباء الفئة المثقفة
الجديدة . فعلى العكس تماما من العهد الاقطاعي
خرج معظم هؤلاء من بين صفوف ابناء الفئات
الاجتماعية الدنيا (دون المتوسطة) ، ولم يفقد
قسم كبير منهم - على الاقل في حدود الاجيال
الاولى - كل الخيوط التي كانت تربطهم بالاوساط
التي خرجوا منها . وفي ذلك بالذات نجد تفسيرا
مقنعا لاهتمامات اعلام النهضة بالتعبير عن واقع
تلك الفئات سواء في لوحاتهم او في مؤلفاتهم التي
انمكست فيها بقوة - كما نرى ذلك فيما بعد - لغة
وحكم وامثال وفولكلور الاوساط الشعبية . بل
اكثر من ذلك ظل بعض افراد الفئة المثقفة الجديدة
ينتمون فكريا الى نفس الاوساط الاجتماعية التي
خرجوا منها فعبروا عن مشاكلها الحياتية باخلاص

تمدت العوامل التي ادت الى تكامل عناصر ميلاد النهضة التحولات التي جرت في قاعده المجتمعات الاوروبية الغربية لتشمل جملة عوامل خارجية تفاعلت مع تلك ، بل اعطت بعضها قوة دفع كبيرة واسهمت بشكل مباشر في ميلاد بعضها الاخر . ففي المرحلة الاخيرة من العصر الوسيط بدأت أوروبا تستقبل مؤثرات شرقية مهمة هزت اركان قيسم مجتمعاتها الاقطاعية المعتدة . وكان الجانب الاكبر من هذه المؤثرات الشرقية اسلامية الاصل والمنبع وصلت الارض الاوروبية عن طريق الاندلس وصقلية والاقطار العربية المشرفة على السواحل الشرقية لحوض البحر الابيض المتوسط . فبفضل الاندلس انتقلت مؤلفات الفلاسفة الاقدمين ، وعلى راسهم ارسطو وافلاطون ، الى ايد اوروبية بعد طوال فقدانها ، وهي وان لم تخل من بعض النواقص الا انها كانت تحتوي ايضا على اضافات جديدة نابعة من اصول حضارية اسلامية . وعن طريق صقلية التي ظلت بايدي العرب المسلمين على مدى قرنين انتقل الشيء الكثير من العلوم الطبيعية والطبية والفلسفية الى اصقاع اوروبية شتى . وان الموجات الصليبية المتدحرجة لم تنقل معها الى حيث اتت الروايات المغربية عن ترف الشرق وجلاله فحسب ، بل حملت كذلك من بدائع الفكر والصنعة ما كان

افرادها يحتفظون لفترة طويلة من الزمن بعلاقاتهم بانريف وبيعض وسائل الانتاج ، بل اقاموا نوعا من العلاقات البتريراركية (الابوية) مع اصحاب الورشات التي انتقلوا اليها . من هنا فان الطبقة العاملة لم تشكل في عصر النهضة سوى عنصر اجتماعي غير واع لدورها وموقعها فلم تستطع ، والحالة هذه ، ان تكون اكثر من وقود لتسيير عجلة التغيير .

حتمت التغييرات الكبيرة التي شهدتها المجتمعات الاوروبية ظهور افكار جديدة تعبر عن مصالح واهداف وتقييمات الفئات والقوى الاجتماعية النامية التي خاضت ، مضطرة ، معممات صراع مستديم مع القديم فعدت بحاجة ملحة الى تعابير ومنطلقات قوية تشمل واقعها وتستهدف تثبيت وتطوير مصالحها وقيمها . ولم تكن النهضة في اطارها العام سوى واحدة من الظواهر التاريخية الاجتماعية المبكرة التي رافقت فترة الانتقال من العصر الوسيط الى العصر الحديث .

كلمة البروليتاريا ومنحت مقعدا واحدا من مجموع ١٩٣ مقعدا من مقاعد المجلس . تفر ، بالطبع ، المفهوم الاجتماعي والسياسي لهذا الاسم . ترجمت « البروليتاريا » الى العربية لأول مرة اثناء مؤتمر شعوب الشرق في يالكو (ايلول ١٩٢٠) فقد كتب على احدى لافتات المؤتمر : « يا صعايك العالم اهدوا » .

يكفي لتحريك أي عقل ودفعه الى المقارنة المجدية .
وبعد عودة السادة الاقطاعيين ورجالهم من المشرق
بدأوا يدركون مغزى « اعمل لدنياك كأنك تعيش
ابدا » بعد ان جعلتهم الكنيسة الكاثوليكية يعملون
في عقور دارهم لاخرتهم فقط وكانهم يموتون غدا .
فبدأ الاوروبيون ، كالمشرقيين ، يجمعون بين
المفهومين ، واذا بالقصور الشامخة تظهر تدريجيا
الى جانب الكنائس والاديرة .

الفصل الثاني

النهضة

اطارها الزمني وخصائصها

مفهوم النهضة :

ما تقدم يبدو ان « النهضة » كانت وليدة
مجموعة عوامل داخلية اساسية وخارجية مساعدة
تفاعلت في رحم المجتمع الاقطاعي الاوروبي . من هنا
فان النهضة كانت تشكل ، بحكم واقع تكوينها ،
اتجاها جديدا في التفكير والنظرة الى الامور تختلف
كلها عما كان يسود ذلك المجتمع من قيم نجمت عن
طبيعة العلاقات الاقطاعية التي تحولت الى عبء في
غاية الثقل على كاهل الناس وكذلك عن جمود
ودكتاتورية الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تقيد
الفكر وتحول دون الابداع ، فبدأ المفكرون بالبحث
عن اساليب جديدة لمناهضة الافكار والنظم السائدة
ولفضحها . وبقصد تحقيق هذا الهدف توجه هؤلاء

سقت النهضة الكبرى ، وبفعل العوامل
السابقة أو بعضها ، ومضات حضارية اخرى
كالنهضة الكارولنجية في القرن التاسع والايوتونية في
القرن العاشر وغيرهما فيما بعد ، الا أنها جميعا
ظلت تتحرك في اطار ضيق لتتحول الى اشبه ما
يكون بخلفية تاريخية للنهضة الاوروبية الكبرى
التي بلغت الذروة في اواخر القرن الخامس عشر
وتميزت عن كل ما سبقها بخصائص لم تشهد لها
اوروبا مثيلا من قبل .

إيطاليا والاطار الزمني للنهضة :

يدخل تحديد الاطار الزمني لعصر النهضة والبلدان التي شملتها مظاهر النهوض الجديد مع تعيين مداها وآثارها ضمن القضايا المعقدة التي لا يزال يدور حولها نقاش علمي مفيد . لم تخضع ، بالطبع ، جميع نتائج القرنين الخامس عشر والسادس عشر الابداعية لقيم واتجاهات النهضة ، فالى جانب افكارها استمرت كذلك ثقافة العصر الوسيط . ثم ان مظاهر النهضة لم تقتصر على بلد اوروبي دون آخر كما لم يجر تطورها ومن ثم ذوبها بوتيرة واحدة وعلى نمط واحد . فقد اختلفت هذه الامور حسب البلدان والظروف . ولكن يوجد نوع من الاجماع العام على اعتبار إيطاليا مهداً للنهضة والحركة الانسانية ، وعلى هذا الاساس يمكننا اعطاء فكرة عامة عن الاطار الزمني للنهضة وتحديد مراحلها الرئيسية .

ادت مجموعة عوامل محددة متفاعلة فيما بينها الى ظهور افكار النهضة في ايطاليا قبل غيرها . فقد ازدهرت هذه البلاد في اواخر العصور الوسطى بسرعة مدهشة . فمند القرن الحادي عشر غدت اقتصادياتها تعتمد بشكل متزايد على التجارة الخارجية وارتفعت طاقة سفنها في حوض بحر

الى بحث الثقافات القديمة ، ولا سيما الاغريقية منها ، فهم كانوا يتصورون ان بإمكانهم الانعتاق من قيود العصر الوسيط والتعمق في فهم الطبيعة والتعبير عنها والاستفادة منها عن طريق احياء التراث القديم . من هنا جاء اسم الاتجاه الفكري الجديد "Renaissance" الذي يعني (البعث) او (الاحياء) او (الميلاد الجديد) في الفرنسية وقد استخدمه رجال النهضة انفسهم لأول مرة (1) .

يرى بعض الفلاسفة والمؤرخين ان الانسانية لم تعرف من قبل حدثا اهم واخطر من « النهضة » . وفملا ترتبط بعصر النهضة ابداعات وتغييرات فكرية عميقة تستأثر وقائنها حتى اليوم باهتمام المئات من المؤرخين والفنانين والنقاد المنتمين الى مدارس فكرية مختلفة . لذا وليس مجرد صدفة ان تظهر نقاشات واجتهادات علمية مختلفة تتناول خصائص النهضة واطارها الزمني وغير ذلك من المواضيع المهمة التي نحاول فيما يلي القاء بعض الضوء على جوانبها الاساسية .

(1) في العربية تستخدم (النهضة) للتعبير عن ذلك الانعاش الفكري الاوروبي ومن عصره ، وقد غدا تداولها كصطلح تاريخي شائعا بين المؤرخين منذ عشرات السنين .



اصبح نقل بضائعها بحاجة الى اسطول كبير من السفن يبحر عباب البحر الابيض المتوسط ويصل الى مياه بحر الشمال . ولم يتردد البنادقة ، شأنهم في ذلك شأن سكان المدن والموانئ التجارية الإيطالية الاخرى ، في ولوج كل ميدان تجاري يأتي منه ربح مضمون . فزاول العديد منهم تجارة الرقيق الابيض حيث كانوا يزودون حريم قصور الشرق بالبلقانيات ولم يترك قرار البابا حول حرمان « هذا العمل اللامسيحي » أي اثر في النفوس لانه كان يشكل « تجارة مربحة للغاية » (٥) .

ازدهرت جنوا وفلورنسا ومدن إيطالية أخرى بنفس المستوى ، بل أن الأخيرة فاقت البندقية في مجالات اقتصادية عديدة . فان النشاط الاقتصادي الواسع في مجالي الصناعة والصرفة الذي دفع بفلورنسا الى موقع « يؤثر في اقتصاد كل أوروبا » (٦) قد جعل ظهور أولى المؤسسات ذات الطابع الراسمالي على صعيد العالم فيها أمرا طبيعيا .

G. Cl. Sellery, The Renaissance. Its Nature and Origins, Madison, 1962, P. 18. (٥)

D. Hay, The Italian Renaissance in its historical background, Cambridge, 1966, P. 89. (٦)

الابيض المتوسط بوتائر سريعة لانها احتكرت كل تجارة أوروبا مع الشرق (٣) الذي وجدت بضائمه النادرة من توابل وحرير وعطور ومصوغات ذهبية وقضية سوقا رائجة لها في كل الاقطار الأوروبية تقريبا ، جنى منها العليان بالذات ارباحا طائلة جعلت « من كل واحد منهم أغنى من السابق » (٤) . فلم ينته القرن الثالث عشر حتى أصبحت إيطاليا تحتل مكان الصدارة في مختلف مجالات حياة القارة الاقتصادية والاجتماعية ، وتقدمت مدنها على غيرها بسرعة . ففي البندقية وحدها بلغ عدد العاملين في مجال صناعة الأقمشة حوالي ١٦ الف شخص وفي مجال صناعة السفن ٦ آلاف شخص (٤) . واذا كان الرقم الاول يعكس واقع التقدم الصناعي للبندقية فان الرقم الاخير يبين مدى ازدهار تجارتها التي

J.R. Strayer and others, The Mainstream of Civilization, second edition, New York, 1974, P. 207. (٧)

H. Baron, The Crisis of the Early Italian Renaissance, Princeton, 1967, P. 365. (٨)

يخص المؤلف بالذكر اهل فلورنسا علما يقصد فترة من تاريخها تميزت بالحروب والغزوات المستمرة .

(٩) تتجسد مدلولات هذه الأرقام وغيرها اذا قيمناها بميزان عصرها .



الأوروبية^(٩) وفتحت باب الاعتماد امام التجار ، بل انها كانت تقوم باقراض الدول الأوروبية الأخرى بما تحتاج من أموال ، كما فعلت ذلك مرارا مع إنجلترا . وكانت البابوية تعتمد على المصارف الفلورنسية في جمع وارداتها في اقطار أوروبية مختلفة^(١٠) . وليس مجرد صدفة ان معظم المصطلحات المصرفية التي تستخدم في اللغات الأوروبية اليوم هي ايطالية الاصل والمنشأ جاء قسم منها عن طريق الاتصال بالمغرب والمسلمين والبيزنطيين .

ومن مظاهر الازدهار الفلورنسي ان عدد سكان المدينة قد تضاعف بمقدار أكثر من مرتين خلال ما يتيف على القرن ونصف القرن . ففي أواخر القرن الثالث عشر بلغ عدد سكان المدينة حوالي ٧٠ ألف شخص ثم ارتفع الى ما لا يقل عن ١٥٠ ألف شخص في منتصف القرن الخامس عشر مما كان يشكل قفزة كبيرة حسب المقاييس الديموغرافية لاواخر العصر

(٩) سبقت فلورنسا في اواسط القرن الثالث عشر جميع المدن الإيطالية في سك نقودها الذهبية التي عرفت بـ «الفلورين» وقد تأخرت البندقية عنها في هذا المسار بما لا يقل عن ثلاثة عقود .

(١٠) ف . ف . سميتوف ، المرجع السابق ، ص ١٨٧ ، ٢٨٠ - ٢٨١ .

ففي فلورنسا ، لا في غيرها ، ظهرت اولى العلاقات الرأسمالية واولى المانيفاكتورات (الورشات) واولى الاتحادات المالية التي كانت تضم عددا كبيرا من 'حرفيين والتجار وتقوم بالاشراف على شؤون الانتاج والتصدير . ففي القرن الرابع عشر كان عدد الحلات الحرفية الكبيرة الفلورنسية التي بلغت مرحلة الانتاج المانيفاكتوري في صنع الاقمشة وحدها يزيد على ٢٠٠ محل^(٧) . وقد أدى هذا التطور الصناعي السريع الى ان يشكل العمال حوالي ٨٠٪ من مجموع السكان العاملين في المدينة^(٨) ، وهو رقم لم يكن له شبيهه في إيطاليا فحسب، بل على صعيد كل القارة الأوروبية والعالم .

وفي نفس المرحلة التاريخية ظهرت في فلورنسا اكبر المؤسسات المصرفية الحديثة التي كانت تتعامل باقوى عملة ذهبية على صعيد القارة

(٧) البروفيسور ف . ف . سميتوف ، تاريخ العصور الوسطى ، باللغة الروسية ، الطبعة الثالثة ، موسكو ، ١٩٧٠ ، ص ٢٨٠ .

(٨) J. Gage, Life in Italy at the time of Medici, London, 1968, P. 101.

رجال المال ومؤازرتهم بعد ان غدت مؤسساتهم تشكل احيانا « دولة داخل دولة » (١٤) .

ما تقدم يعنى ان عملية انحلال العلاقات الاقتصادية بدأت في ايطاليا قبل غيرها وظهرت فيها بحكم ذلك متطلبات المجتمع الجديد قبل غيرها ايضا . وفي ذلك بالذات يكمن السبب الرئيس لتحول ايطاليا الى مهد للنهضة بحيث ان فلورنسا كانت تشكل اكبر مركز لنشاطاتها خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وفيها ظهر عدد كبير من ابرز روادها واعلامها الانداز فاستحقت بحق لقب « عاصمة النهضة » (١٥) .

تفاعلت مع هذا العامل الاساسي جملة عوامل اخرى ساعدت في تسريع ميلاد ونمو عناصر النهضة في ايطاليا . فان هذه البلاد لم تكن مجرد حلقة وصل تجارية بين اوروبا والشرق ، بل انها كانت؛ وبحكم ذلك ؛ تشكل في الوقت نفسه حلقة وصل ثقافية مهمة بين الجانبين . فعن طريقها انتقلت افكار ومظاهر حضارية شرقية مهمة تركت اثارا واضحة على معالم النهضة الاوروبية . وتعود بداية

(١٤) هكذا وصف احد بنو لعدينة جنوا الى حينه (Ibid, P. 57)
(١٥) ف . ي . روتينيورغ ، عمالقة النهضة ، باللغة الروسية ، لينينغراد ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠ .

الوسيط عندما كان عدد سكان اكبر مدينة اوروية يربو على حوالي ٨/١ الرقم الاخير (١١) .

وجدت هذه التطورات العميقة انعكاسات واضحة لها في طبيعة الانظمة السياسية القائمة آنذاك في المدن الايطالية المتقدمة . فان معظم العوائل الايطالية الحاكمة اصبحت على ارتباط وثيق بالتجارة والصناعة وتوليها اهتماما اكبر مما توليه الارض والزراعة . واسرة ميديجي (١٢) الفلورنسية خير نموذج لهذا النوع الجديد من العوائل الحاكمة ومن الجدير بالذكر ان اصحاب المال ، ولا سيما التجار ، لم يكونوا يشكلون الاكثية في بعض المجالس الرسمية في عدد من المدن الايطالية . ولكن حتى ذلك كان يعكس واقع الزخم الاقتصادي الجديد الذي امتص كل اوقات الراسماليين الظليان الذين قيموا « الوقت كائمن شيء » بالنسبة لمصالحهم (١٣) . والمهم هو ان الواقع الجديد قد جعل بقاء أي نظام في المدن الايطالية يعتمد في كل الاحوال على موقف

(١١) نفس المرجع ، ص ١٨٢ .

(١٢) اصل الكلمة من "Medici" ذات الصلة بالعمل الميديلي والطبي .

(١٣) J. Gage, Op. Cit., P. 57.

أمل تحقيق حلمهم الكبير . إلا ان الملاح البرتغالي وجد نفسه ، مع ذلك ، بامس الحاجة الى عبقرية « ليث البحر » احمد بن ماجد الذي التقى به في مدينة ماليندي الكينية فسلمه عن فتاة تامة زمام قيادة حملته التي لولاد لما حققت ما ارادت بمثل تلك السرعة .

كان يوجد عامل مهم آخر جعل من التربة الإيطالية مكانا أسلح لتفتق بذور النهضة فيها قبل غيرها . فكما هو معروف ان هذه البلاد قد تحولت منذ قرون سبقت عصر النهضة الى أهم مركز للكنيسة والعالم المسيحي بأسره مما اثر على ظهور وتطور النهضة فيها من قطبين متناقضين الى حد ما . فان جانباً كبيراً من افكار النهضة انصب ، كما سنرى ، على نقد الكنيسة الكاثوليكية التي كانت روما تشكل قلبها النابض فتجسدت فيها ، اكثراً من غيرها ، جميع الجوانب السلبية التي اثارَت الاستياء في نفوس الأوروبيين . هذا من جهة . أما من الجهة الثانية فان الكنيسة نفسها اضطرت ان تضع في حسابها التحولات الجديدة التي رافقت النهضة بشكل جدي ذلك لانها بدأت تخشى ان تفقد تأثيرها في المجتمع فحاولت جذب بعض رجال النهضة الى جانبها واهتم عدد من البابوات من هذا المنطلق ومن بعض المنطلقات الدائمة كذلك (كحج

ذلك الدور بشكل خاص الى فترة الحروب الصليبية التي اجمع المؤرخون على تأثيرها الكبير في نقل مقومات حضارية كثيرة من الشرق الى الغرب انعكست ، اول ما انعكست ، في النهضة . وكان موقع جنوا بارزا في هذا المجال بشكل خاص ، فانها قامت منذ الحملات الصليبية الاولى باقامة مراكز تجارية لها في كل من سوريا وفلسطين .

عبرت عناصر الثقافة الشرقية ، وعلى رأسها العربية الاسلامية ، عن ذاتها في افكار النهضة المبكرة وفي مكتسباتها المتأخرة سواء بسواء . فمن الثابت تقريبا ان اثنين من الرواد الثلاثة الاوائل للنهضة ، ونقصد بهما دانتي وبوكاشيو ، قد اترا في ابرز نتاجاتهما الفكرية بابداعات الشرقيين (١٦) . وفي المجال العلمي يكفي ان نورد هنا مثلا واحدا لا يخلو من مغزى عميق . ففي عصر النهضة بالذات اختار البرتغاليون من بين الكثيرين فاسكودي جاما لقيادة حملتهم التاريخية الى الهند وذلك لما كان يتميز به من صفات نادرة ، وقد زودوه باحسن ما عرفت أوروبا من سفن وبارقي ما توصل اليه فكر اهلها من خرائط واليات فلكية يحدوهم في ذلك

(١٦) سوف نعود الى هذا الموضوع في الفصل الخاص باعلام النهضة .

الكنائس الإيطالية من قبيل المثال كنيسة القديس
بطرس المعروفة وقاعات الفاتيكان .
المعروفة وقاعات الفاتيكان .

يجب الا ننسى كذلك ان ايطاليا نفسها كانت
مهذا للثقافة الرومانية القديمة التي اعطت التطور
الحضاري الانساني الشيء الكثير مما تحول الى حافظ
معنوي مهم لرجال الفكر الطليان الذين لم يفقدوا
كلها اتصالهم بماضي شعبيهم العريق ، ولا سيما وان
بلادهم احتفظت بآثار ذلك الماضي اكثر من اي بلد
آخر . ومن المهم ان نلاحظ بهذا الصدد ان الانار
القديمة تلك كانت تعود الى اكثر عهود العصر القديم
ازدهارا من الناحية الاقتصادية وديمقراطية من
الناحية السياسية في اطار العلاقات السائدة يومذاك
وهي كانت تبدو متفوقة من كل الاوجه على ما كان
يسود عهد الاقطاع الاوروبي في مرحلة انحلاله
وضموره فاتخذها مناهضو هذا الاخير حسب
فهمهم اياها ووفق ما اسبقوا عليها من صفات هي
لم تكن لتتميز بها دائما ، اداة لهدم اسس النظام
التمعن القائم . وفعلها انها ادت مثل ذلك الدور
بتين البون التاسع بين قمة ازدهار عصر سابق
وحضيض تحلل عصر قائم .

وما دمتا بصدد ذكر العوامل التي جعلت من
ايطاليا رائدة للنهضة فيجب ان نشير كذلك الى

بعضهم للعلم وورعايتهم للعلماء) ، اهتموا بدراسة
انكار الانسانيين عن كتب منهم ابن فارح اجراس
الكنيسة السابق البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ -
١٤٥٥) الذي عرف بافكاره المتحررة وتقييمه
الصحيح لواقع مرحلته فلم ير اي تعارض بين
اهتماماته بتقانة ما قبل الميلاد مع اخلاسه
للمسيحية ؛ فهو كان يتغنى ، عن ادراك ذكي ،
التوفيق بين هذه الاخيرة و « خير ما في الحضارة
القديمة واعادة بناء روما كعاصمة للعالم
المسيحي » (١٧) . لذا لم يتردد نيقولا الخامس في
نشر الوكلاء في ارجاء القارة الاوروبية بقصد جمع
اكبر عدد ممكن من المخطوطات تحولت الى ثروة
كبيرة لمكتبة الفاتيكان ، كما استعان بخدمات المؤرخ
والمحقق البارع لورينزو فاللا (Lorenzo Valla)
(١٤٠٧ - ١٤٥٧) وغيره لتحقيق هذه المخطوطات .
وقد سلك عدد آخر من البابوات نفس النهج ، ولكن
في نطاق اضيق ، مما لعب بعض الدور في احياء
التراث القديم وتشجيع الانسانيين في مساعيهم
وتكريس امكانات مجموعة من عباقرة النهضة لتخليد
جانب من ابداعاتهم الفنية على جدران واقبية اشهر

J.R. Strayer and others, Op. Cit., PP. 362-368. (١٧)



بإمكان أي بلد أوروبي آخر تقديمه ، بحيث لم يكن حتى بإمكان التدهور الذي أصاب الحياة الاقتصادية والسياسية لاطاليا منذ العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر بسبب التدخّل الاجنبي وتحول طرق المواصلات من البحر الأبيض المتوسط ، لم يكن بإمكانه وقف التطور العارم لمظاهر النهضة فيها .
ويكفي ان نقول هنا ان المماتقة الافذاذ ليوناردو دافنشي وميخائيل انجيلو (ميكلانجيلو) وروفائيل وغيرهم قد عاصروا فترة الانحلال هذه واعطوا في سنواتها وفي ظل ظروف شاقة ، نتطرق الى جوانب منها ، ما يبقى خالدا ابد الدهر . ولقد دفع مثل هذا الواقع ببعض المؤرخين الى الاعتقاد بان النهضة انما اقتصرت على ايطاليا وحدها . ولئن كان في ذلك بعض المبالغة الا ان حقيقة تأثير افكار النهضة الايطالية على البلدان الاخرى امر معترف به لدى الجميع . ولكن على أي حال فان ارتباط النهضة الوثيق بايطاليا يجعل منها الانموذج الامثل لتحديد اطارها الزمني بشكل عام حسب المراحل التالية :

- ١ - المرحلة المبكرة وتشمل اواخر القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر ،
- ٢ - مرحلة السمو والتكامل وتشمل نهاية القرن الخامس عشر والربع الاول من القرن السادس عشر .

حقيقة مهمة اخرى هي ان اتجاهات عصرها وجدت لها انعكاسات سريعة في نتاجات الادباء والفنانين الموهوبين المتميزين بالحس المرهف الذي يعبر عن مكوناته بسرعة على عكس النتاجات العلمية والتقنية التي تحتاج الى وقت اكبر وتجارب عملية كانت غالبا ما تستغرق فترة زمنية طويلة بحكم بساطة وسائل الانتاج والعمل آنذاك . ثم ان ايطاليا عرفت بروعة طبيعتها التي اغنت لغتها الدارجة وادب شعبها مما تحول الى مصادر طاقة لابداعات ابنائها الخلاقة في شتى حقول النتاج الفني والادبي والى اساس لتذوق هذا النتاج في أشكاله المختلفة . ففي ذلك العصر ما كاد ان يرتقي شاعر شعبي ايطالي منصة ليلقي منها شيئا مما تفتقت به قريحته حتى يهيم اصحاب الحوانيت الى غلق محلاتهم ليستمعوا بما يلقيه ذلك الشاعر من نتاجاته (١٨) .

نتيجة لهذه العوامل الرئيسة ظهرت النهضة وتبلورت مقوماتها في ايطاليا قبل غيرها ، فاستطاعت ان تقدم لها من الخدمات وعناصر التطور ما لم يكن

(١٨) هيرت فيشر ، اصول التاريخ الاوروبي الحديث ، نقله الى العربية الدكتور زينب عصمت راشد والدكتور احمد عبدالرحيم مصطفى ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٠ ص ٤١ - ٤٢ .



الشرقية (١٩) وإلى مناطق البلقان التي كانت ترزخ تحت الاحتلال العثماني . ولكن حتى هذه الاقطار قد عززت مقومات النهضة بإبداعات عدد من ابنائها المفكرين . ويكفي هنا ان نشر الى ان العالم السهير كوبرنيكوس كان بولوني المولد والجنسية . بهذا المفهوم تكون النهضة حصيلة ثقافية لجميع الشعوب الاوروبية التي ارتبطت نية دورها فيها بظروفها الداخلية الخاصة . واذا اخذنا تأثيرات وانعكاسات الحضارات الشرقية بنظر الاعتبار يمكن انذاك اعتبار النهضة حصيلة ثقافية انسانية في اطارها العام . وفي الواقع لا يصح الا تأخذ هذه النقطة بنظر الاعتبار جديدا لانها تشكل في حقيقة امرها نتيجة منطقتين للتفاعل المستمر بين الحضارات المختلفة في مجرى اشمل من النهضة نفسها من حيث التأثير والتأثر ، وهو امر لم يجد له - بكل اسف - اي انعكاس في مؤلفات الغربيين الذين وان كانوا يعترفون بفضل الشرقيين على التطور الاوروبي اللاحق الا انهم لم يقيموا النهضة بما فيه الكفاية باعتبارها انعكاسا لجهد مشترك . ومما يعطى رأينا قوة اضافية هو ان تأثيرات النهضة نفسها كونت نقطة مضيئة

(١٩) نازر الروس لي بناء قصر الكرملين بفن العمارة الإيطالية . وقد تم بناء سور وأبراج الكرملين تحت اشراف معماريين إيطاليين لي ١٤٨٥ - ١٤٩٥ .

٢ - المرحلة المتأخرة في القرن السادس عشر .

ينطبق نفس التقسيم الى حد كبير على اقطار أوروبا الغربية كذلك . وكانت المرحلة الاولى هي مرحلة الميلاد والتكون والثانية هي مرحلة النضج والتكامل ، بينما تشهد افكار النهضة والحركة الانسانية في المرحلة الثالثة ازمة جديدة تعود الى ذكر تفاصيلها فيما بعد . وقد تميزت كل مرحلة من هذه المراحل والنهضة بمجموعها بعدد من الخصائص الاساسية التي ميزتها في نقاط كثيرة عن الحركات الفكرية التي سبقتها والتي تلتها .

خصائص النهضة الاساسية :

تميزت النهضة ومعها الحركة الانسانية بخصائص بارزة جعلت منها ثورة ثقافية وفكرية ذات طابع خاص في التاريخ الانساني ، وسنحاول فيما يلي تحديد اهم جوانب تلك الخصائص بايجاز .

١ - لم تظهر النهضة في الاقطار الاوروبية في وقت واحد ، ذلك لان ميلادها اعتمد على مدى تطور العلاقات في القاعدة الاجتماعية لكل قطر . فهي ظهرت في ايطاليا وفي اقطار أوروبا الغربية قبل غيرها ، بينما لم تمتد سوى ومضات منها الى بلدان أوروبا

اعاق نمو وانتشار النهضة فيها بنفس السرعة التي ظهرت بها هناك في وقت مبكر نسبيا .

خلاصة القول هي ان ميلاد النهضة ثم تطورها لم يجريا على نسق واحد ، بل اختلفا حسب البلدان والظروف ، والنهضة هي حصيلة جهد اوروبي في اطارها الضيق وعالمي في نطاقها الواسع .

٣ - بالرغم من وجود عناصر مشتركة قوية بين مظاهر النهضة في البلدان الاوروبية المختلفة الا انها مع ذلك تميزت في كل قطر ببعض الخصائص الذاتية الناجمة غالبا عن ظروفها المحلية التي حتمت او استوجبت التاكيد على مظهر معين اكثر من مظاهر النهضة الاخرى . ففي المانيا مثلا ركز الانسانيون على دراسة ما اسماه ارازمس (٢١) بـ « فلسفة المسيح » (٢٢) ، فاتخذت النهضة الالمانية طابعا فكريا عميقا مس قضايا الكنيسة الكاثوليكية بشكل مباشر مما كان له ابلغ الاثر في حركة الاصلاح الديني هناك . بينما جرى في فرنسا تاكيد خاص

(٢١) من أبرز الانسانيين . للتفصيل عنه راجع الفصل الخاص باعلام النهضة .

(٢٢) "The Renaissance and the Reformation 1300 - 1600", Edited by D. Weinstein, New York, 1955, P. 19.

جديدة في المجري الحضاري الاشمل فلم تقتصر اشعاعاتها على جزء من اوروبا او القارة باسرها بل انها تسربت بسرعة وبقوة نسبيتين لتمتد باشكل مختلفة الى اجزاء العالم الاخرى حيث اسهم علماءها ومفكروها في تطوير مكتسبات النهضة في اطر جديدة متوافقة مع مستلزمات وقيم المراحل التاريخية التالية .

٢ - ارتبطت سرعة تطور النهضة بشكل مباشر بسرعة تطور العلاقات والمظاهر الاقتصادية - الاجتماعية الجديدة حسب البلدان الاوروبية المختلفة . فان بدايات النهضة في انكلترا تعود ، مثلا ، الى القرن الرابع عشر ، الا ان احتدام الصراع الاقطاعي في البلاد والذي افضى الى حرب اهلية ضارية (٢٠) . قد عرقل بشكل جدي تطور النهضة الانكليزية خلال القرن الخامس عشر بحيث لم تنتش مظاهرها من جديد الا في اوائل القرن السادس عشر وهو القرن الذي شهدت انكلترا فيه بداية تطور اقتصادي واجتماعي ملموس . وفي اسبانيا اعاق الانحلال السريع الذي هز بسرعة مختلف جوانب حياة شعبها مع عوامل اخرى ،

(٢٠) نقصد بها حرب الوردلين (١٤٥٥ - ١٤٨٥) .

بارعا واديبا لامعا ومهندسا متفوقا وعالما بارزا في الرياضيات وميكانيكا اخترع عددا كبيرا من الآلات والمكائن ، كما اهتم بالطب ، خاصة ما يتعلق بتشريح جسم الانسان . أما كوبرنيكوس فانه كان مفكرا وعالما ضليعا في مجال الفلك ، درس القانون والطب والفلك في بلاده وفي ايطاليا . وفي الاولى اشتغل في مجالات ادارية ومالية مختلفة الى جانب انغماسه المتواصل وعلى مدى . ٤ عاما في تجاربه العلمية الصرفة . وتضعه آراؤه واستنتاجاته المهمة في مصاف مفكري عصره . ولم يكن ماكيا فيللي مجرد مؤرخ أو رجل سياسة فحسب ، بل كان أيضا فيلسوفا واديبا بارعا . وستعرض لنماذج أخرى من هذا القبيل عند بحثنا عن اعلام النهضة .

٥ - اولى رواد النهضة ، خاصة في المرحلة الاولى من مسار تطورها ، اهتماما كبيرا للغاية بالنتائج الفكرية لعصر ما قبل الانطباع ، اي ذلك العصر الذي كان المفكرون فيه متحررين من قيود الكتلكة فكانوا يهتمون بالحياة وبالانسان أكثر من أي شيء آخر . وقد نبغ مثل هذا الاهتمام من جانب الرواد عن ايمانهم المطلق بانهم يتمكنون ، بعد قرون متواصلة من الاستبداد الفكري للعصر الوسيط ، من العودة الى الاهتمام بالحياة والتعمق في فهم الطبيعة والتعبير عنها والاستفادة منها فقط عن طريق بحث

على دراسة القانون الروماني القديم وقد تحول ذلك الى سابقة مهمة لتطور الدراسات القانونية فيها (٢٢) . اما في انكلترا فقد استندت قاعدة النهضة الفكرية على القضايا الفلسفية والجمالية التي عبرت عن نفسها بشكل صارخ في مجالات الادب والاجتماع والمسرح ، ولم تخل النتاجات الفكرية فيها من طابع ديني ، لا سيما في فترة الحرب الاهلية التي شهدت الى جانب ذلك روايات تغنت كالسابق ببطولات الفرسان . وقد عبر الاتجاه الفكري الراديكالي عن نفسه في بعض البلدان بشكل اقوى مما كان عليه الامر في بلدان اخرى . ولكن ظل التشابه والتقارب بين مظاهر النهضة يشكل في كل الاحوال الطابع العلامي لثقافتها على صعيد القارة الاوروبية .

٤ - لم يتقيد رجال النهضة ، ولا سيما في ايطاليا ، بالتخصص في مجال دون آخر . فعالبا ما كان الواحد منهم يتمسك بناصية حقول مختلفة من المعرفة والابداع الفني . وخير مثال على ذلك هو الرسام الخالد ليوناردو دافنشي الذي كان نحاسا

(٢٢) تشتهر الجامعات الفرنسية باهتمامها الكبير بالقانون منذ زمن بعيد ، حتى ان اللغة الفرنسية أصبحت تتميز بمكانة خاصة في تنظيم شؤون العلاقات الدولية .

ان تكون سوى «مرحلة في مسار التطور الفكري» (٢٤) لا استنساخا للماضي كما يبدو ذلك بشكل أوضح فيما يلي من مواضع .

٦ - كان من الطبيعي ان يرتبط جانب مهم من ابتكارات عصر النهضة العلمية والتقنية بمصالح البورجوازية النامية مما تجسد بشكل واضح في التطورات الكبيرة التي حدثت في المجالات المتعلقة بالملاحة كتطور صناعة السفن والتقدم الهائل في حقل الدراسات الجغرافية والفلكية التي كان يستحيل بدونها كشف الطرق التجارية الجديدة مع العالم القديم والجانب الغربي من الكرة الأرضية . ففي هذه المرحلة بالذات ظهرت نشرات جغرافية مختلفة احتوت على معلومات علمية واجتماعية مهمة وطريقة للرحالة استهوت حتى القاريء البسيط .

A. J. Grant, A history of Europe, (٢٥)
Part II, London, 1929, PP. 463, 465

في الواقع ان جرانت يقول في نهاية رايه المذكور اننا ان النهضة كانت تشكل «مرحلة في مسار التطور اللغوي الأوروبي» ، الا اننا لم نقتبس الكلمة الاخيرة من مقولته هذه لعدم التوافق مع رأينا الذي عرضناه ضمن كلامنا عن الخاصية الاولى من خصائص النهضة باعتبارها اشمل من كونها مجرد نهضة اوروبية واحرى ان تكون ذات طابع انساني .

التراث القديم . وقد بلغ تمسكهم باحياء مخلفات ذلك العصر حد ان الناس ظلوا طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر يعتبرون كل مظاهر النهضة مجرد بعث لنفس حقول المعرفة التي كانت تسود عهدي الرومان والاغريق بشكل خاص . اي انهم لم يعتبروا ميلاد تلك المظاهر استجابة طبيعية لحاجات اجتماعية جديدة تخطت متطلباتها حاجات المجتمعات القديمة بمراحل عديدة لذا احتوت على افكار وابداعات وابتكارات لم يكن بالامكان مجرد التفكير بها في العصر القديم لانقضاء الحاجة اليها اصلا . فان عوامل النهضة ، كما ذكرنا ذلك في مكان آخر ، كانت عميقة ومتشعبة بحيث لم يكن في الامكان ان تكون هذه الظاهرة الحضارية الجديدة مجرد احياء للقديم او نتيجة مباشرة لسقوط القسطنطينية وانتقال البيزنطيين مع مخطوطاتهم اليونانية القديمة الى ايطاليا كما يمتد ويؤكد العديد من المؤرخين . الواقع هو ان «أوروبا استيقظت وغدت متلهفة للمعرفة الجديدة» ، وبما انها استيقظت واصبحت متلهفة الى الجديد من العلوم والمعارف فقد تشعبت توجهاتها لتحقيق تلك الغاية الرفيعة منها ان ابناءها انكبوا على «دراسة ما اهمل من نروة كلاسيكية قديمة لم تنس نهائيا» . من هنا لا يمكن للنهضة

الديني للعلوم والآداب وعلى قيمة الفرد في الحياة بعد تجريده منها على مدى قرون طويلة ، وبشكل خاص بعد أن تحولت النقابات والإصناف التي تنظيمات جامدة فرضت قيودها عليه . فان أبرز خاصية للحركة الإنسانية هي تأكيدها على الذات أو شخصية الفرد (Individual - Individualism) (٢٦).

ولم يأت ذلك اعتباطاً ، بل إن متطلبات الحياة في العصر الجديد قد فرضت تغييراً كبيراً على موقع وتصرف الفرد في المجتمع . فلم يعد بإمكان الأصل والانتماء العائلي مثلاً تحديد مكانة وإمكانات إنشاء الفئات الاجتماعية العليا كما كان عليه الأمر في السابق عندما كان الإقطاعي يأتيه بحكم الانتماء الوراثي مورد كبير دون بذل جهد يذكر ، بينما أصبح لزاماً على الرأسمالي - خاصة في المراحل الأولى من ظهور الرأسمالية - أن يعمل ويتحرك ويبدل النشاط ويدخل حلبة المنافسات ويلجأ إلى المناورات وبراقب وضع السوق وتقلباتها بدقة . وهو كان يفعل كل ذلك من أجل تطوير إمكاناته التي أصبحت عرضة للزوال في خضم التنافس المتزايد . من هنا أصبح التأكيد على قيمة الفرد الكاملة في ذاته وصفاته لا

(٢٦) لم يقصد الإنسانيون بمصطلح الـ (Individualism) معناه الحرّي - الفردية ، بل كانوا يقصدون به التأكيد على ذات الإنسان أو شخصية الفرد .

وقد ازداد الاهتمام كذلك بالرياضيات والنبات وبعدد آخر من العلوم الطبيعية التي أسهمت بأشكال مختلفة في تطوير الحياة الاقتصادية لبلدان أوروبا وفي تلبية حاجات ذلك التطور . وهي عززت - كما سنرى - أسس الأيديولوجية البورجوازية الجديدة بأبنائها ، على أساس التجربة ، بطلان الكثير من الآراء والأفكار الإقطاعية البالية التي ظلت تسود المجتمعات الأوروبية على مدى قرون طوال .

٧ - يعتبر الإنسانيون أيديولوجي عصر النهضة ، فهم الذين خطوا الخطوة الأولى في وضع الأسس الدنيوية للثقافة الجديدة .

ينحدر أصل مصطلح الإنسانية والإنسانيين (Humanism - Humanistic) كتعبير اجتماعي فكري ظهر في القرن السادس عشر (٢٥) ، من الكلمة اللاتينية (Humanitas) التي تعني الإنسانية حرفياً وهي مقتبسة بدورها من كلمة (Homo) التي تعني الإنسان . وقد أراد أصحاب الاتجاه الجديد باختيارهم لهذا الاسم التأكيد على الطابع

(٢٥) تم تهيئته كمصطلح متداول في القرن السادس عشر ، وإلا فإن بعض الإنسانيين غالباً ما استخدموا (Humanitas) . في نتاجاتهم قبل ذلك التاريخ .

لورينزو فالأ أكد بحماس على أن هدف الحياة إنما هو السعادة وعلى الناس أن يصبوها إليها لكونها «أرادة الطبيعة نفسها» كما كان يقول (٢٩). وقد أعطى تفسير مثل هذه الآراء مجالاً للابتهاد أحياناً عن بعض القيم المعنوية والانغماس بشكل متطرف في ملذات الحياة، مما برز بشكل خاص بين أفراد الأوساط المتمكنة في إيطاليا. مع ذلك يجب أن نؤكد أن الإنسانيين كانوا يرومون من تأكيدهم على الذات إعطاء الفرد موقعه الطبيعي في المجتمع وهم في تمسكهم بقيم الماضي ما كانوا يستهدفون مجرد تحويل الفرد إلى «رجل ثقافة» وحسب بل وتحويله كذلك إلى «مواطن أفضل وأفيد» (٣٠). وفي ذلك، دون شك، توجه أخلاقي مهم يجب أن يقيم من خلال منظور اجتماعي ووطني عام.

(٢٩) من آراء لورينزو فالأ أن «كل ما في الإنسان، من جسم وروح، هو من تصميم الهي، فلا جزء فيه أت من الشيطان» (مقتبس من:

E. Garin, Italian Humanism. Philosophy and civic life in the Renaissance, translated by P. Munz, Oxford, 1965, P. 50).

H. Baron, Op. Cit., PP. 451-452. (٣٠)

في انتمائه سمة بارزة لدى مفكري عصر النهضة الذين اعتبروا الإنسان «مقياساً لكل ما يخلقه الإنسان» (٢٧)، فهو الذي «يعرف ما يفعل وكيف يستغل إمكاناته ومواهبه الكامنة» لكي «يجتني أحسن الفوائد مما يتاح له من فرص ليشق طريقه في هذا العالم» (٢٨). وبذا تحول الفرد في نظر الإنسانيين إلى أهم عنصر من عناصر الطبيعة فكانوا يؤكدون على قدرته الخارقة التي تجعل منه كائناً يستطيع «طرق كل الأبواب» فإن «كل الطرق مفتوحة أمامه» ما دام «تكمُن فيه بذور معارف شتى».

ومن المنطلق نفسه أكد الإنسانيون بشكل خاص على قضايا الفرد الحياتية وعلى وجهة نظره إلى مظاهرها مع تمجيد أفعاله التي كان من شأنها الترفيد عنه في حياة الدنيا. بل إن سعادة الذات كانت تبرر، في نظر معظمهم، سبل تحقيقها. فإن

M. L. Bush, Renaissance, Reformation and the Outer World, London, 1967, P. 153. (٢٧)

R.R. Palmer and J. Colton, A history of the Modern World, third edition, New York, 1965, P. 51. (٢٨)

الاختلاف والتناقض في مظاهر معينة للنهضة ولا سيما في الاتجاهات الفكرية التي برزت الى الوجود في عهدها . ولكن تبقى افكار النهضة في مجملها تمثل البورجوازية النامية . وبما انها كانت تناقض اساسا قيم المجتمع الاقطاعي فقد اتسمت بطابع ثوري واصبحت تعبر عن طموحات جميع الطبقات والفئات التي اتفق تغيير ذلك المجتمع مع مصالحها الاساسية .

برزت خصائص النهضة ومقوماتها هذه في ايطاليا أولا ومنها بدأت تنتشر الى الاقطار الاوروبية الاخرى لتتطور وتتأقلم في توافق مع الظروف الخاصة بكل واحد منها . ولم يجر هذا التأثير بنفس المستوى ؛ ذلك لان الاقطار الاوروبية نفسها لم تكن في القرن السادس عشر مهيأة لتقبل اشعاعات النهضة الايطالية بدرجة واحدة . فترى انعكاسات محدودة متأخرة لعناصرها في مناطق البلقان واوروبا الشرقية لتزداد كما ونوعا وسرعة بشكل لا يقاس في انكلترا ولا سيما في فرنسا والاراضي المنخفضة (٢١) . وكانت سبل انتقال آثار النهضة من ايطاليا متنوعة للغاية (٢٢) . فبالنسبة لفرنسا ، مثلا ، لعبت غزواتها

A. J. Grant, Op. Cit., Part II, P. 459. (٢١)
R. Weiss, The spread of Italian Humanism, London, 1964, PP. 86-97. (٢٢)

وعلى اية حال فان نظرة الانسانيين الى حياة الدنيا جاءت نقبضة للرهبنة التي كانت تقضي بتكريس كل ما في الحاضر من اجل الآخرة مما كان يشكل بدعة كنسية بعيدة عن الروح الاصلية للديانة المسيحية وهو امر برهن عليه رجال الاصلاح الديني ومفكرو النهضة بشكل لا يقبل الجدل . ومن المفيد ان نذكر بهذا الصدد ان نمط حياة البابوات وكبار الاساقفة كان على طرفي نقيض مع ما ابتدعت افكارهم من تعاليم . لذا فان موقف الانسانيين في هذا المجال كان يشكل ثورة تحد كبيرة بوجه التزمتم الكنسي الذي جرد الانسان من قيمه واهمية وجوده في هذه الحياة . بينما جعل الانسانيون من فهم الانسان وما يحيط به واحدا من اهم مقاصدهم ، وهذا ما تحول بالتالي الى عنصر محرك مهم لكل علم ومعرفة جديدة .

٨ - شكل الجانب الاكبر من الآراء والافكار التي رافقت النهضة النواة الاولى للايديولوجية البورجوازية . ولكن تجاوزت جوانب معينة من تلك الافكار احيانا اطار هذه الطبقة الجديدة لتعبر بشكل او آخر عن طموحات الفئات الاجتماعية الدنيا بما فيها الطبقة العاملة الوليدة ، بل انها ارتبطت في احيان اخرى ولاسباب ذكرناها بالكنيسة وبالاقطاعيين كذلك . وقد نجم عن ذلك بعض

لتعطي ثمارا يانعبة اختلفت عن أصلها بشكل أو بآخر (٢٤) .

وكيفما كان الامر فقد تمخضت مراحل النهضة الثلاث في مهدها - ايطاليا ، وفي الاقطار المجاورة لها ، عن نتائج مهمة للغاية تركت آثارها على التطور الفكري والعلمي اللاحق لكل العالم . وبالطبع في الامكان تجسيد خصائص النهضة أكثر من خلال لقاء بعض الضوء على نتائجها الأساسية وذلك بحكم التشابك الكبير بينهما مما يبدو واضحا من مضمون الفصل التالي .

العسكرية دورا مباشرا لاحتكاك النبلاء الفرنسيين بأسلوب حياة وثقافة سكان المدن الإيطالية المزدهرة فاقتبسوا منهم طرز ملابسهم وأسلوب تعاملهم الاجتماعي كما تأثروا بأدابهم وعلومهم . وسرعان ما تحول البلاط الفرنسي نفسه إلى مركز أساسي لتلقف وتطوير مظاهر النهضة الإيطالية . فبتأثير من عمارتها - على سبيل المثال لا الحصر - تم بناء القصر الملكي المعروف لوفر في باريس (٢٢) الذي يأتي حتى اليوم على رأس قائمة المزارات الفكرية في العالم .

لعب طلاب العلم دورا مهما في مجال نقل آثار النهضة الإيطالية المبكرة إلى بقية أنحاء أوروبا . فبعد ان بدأت في فلورنسا منذ أواخر القرن الرابع عشر دراسة اللغة اليونانية القديمة بأسلوب جديد لنتشر إلى أجزاء البلاد الأخرى بسرعة ، توافد العديد من أبناء الاقطار المجاورة على المدن الإيطالية بقصد تعلم هذه اللغة وللوقوف عن كسب على نتائج افلاطون وأرسطو وغيرهما . وقد حمل هؤلاء عند عودتهم إلى أوطانهم الكثير من بذور الأفكار الجديدة

(٢١) "The Renaissance and the Reformation 1300-1600", PP. 9, 13.

(٢٢) ف . ف . سميونوف ، المرجع السابق ، ص ٥٧ .



اهتمامهم وهذا بخلافه كان يعني كسر الاحتكار الذي فرضته الكنيسة على مدى قرون طويلة بالنسبة لهذا العمل . فبدأ اللغويون والعلماء من غير رجال الدين يظلمون بهذه المهمة ويكشفون بها للناس قضايا في غاية الأهمية . فمثلا ان لورينزو فالو الذي استعان به شخص البابا لتحقيق بعض المخطوطات بين وجود أخطاء كبيرة في ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة اللاتينية وقد نشر بحثا خاصا بهذا الصدد . كما بين في بحث آخر له ان « هبة قسطنطين » (١) ، وهي الوثيقة التي كان يستند اليها الباباوات في ادعائهم السلطة الدنيوية ، مزورة من اساسها وتعود الى القرن الثامن لا الرابع الميلادي مما ترك أثرا سلبيا كبيرا على سمعة البابوية . وقد اثبت لورينزو فالو انه لا يحق للباباوات التمتع باي سلطة دنيوية لا في الفاتيكان وروما ولا في الممتلكات البابوية ولا في أي جزء آخر من العالم ، بل تجرا ان يقول عنهم بكل صراحة انهم قد تحولوا من « قساوسة

(١) « هبة قسطنطين » (Donation of Constantine) وثيقة مزورة دونها مستشارو البابا في القرن الثامن ادعوا فيها ان الامبراطور الروماني قسطنطين (٢٠٦ - ٢٠٧) منح البابا سلطة دنيوية على كل القسم الغربي من الامبراطورية بما في ذلك ايطاليا . وقد حول الباباوات هذه الوثيقة المخلقة الى اساس قانوني في صراخهم المرير من اجل السلطة الدنيوية .

الفصل الثالث

نتائج النهضة

ادت افكار النهضة ونتائجها الى نتائج اجتماعية وثقافية وعلمية وسياسية مهمة أسهمت بشكل فعال في تطوير المجتمع الاوروبي أولا والحضارة الانسانية ثانيا ، وقد كتب الخلود لبعض آثارها منذ لحظة ميلادها . وسنحاول فيما يلي التعرض بإيجاز الى الجوانب الاساسية لاهم النتائج التي تمتعت عن النهضة في اطارها الشامل .

١ - هزت افكار النهضة وابداعاتها الخلاقة اسس التيم الفكرية للمجتمع الاقطاعي في العصر الوسيط . فقبل كل شيء كشفت اهتمامات الانسانيين المتعددة الجوانب الكنيسة الكاثوليكية وبدع رجالها على حقيقتها . وأول ما يجلب النظر في هذا المجال هو ان رجال النهضة اولوا دراسة وترجمة الكتب الدينية القديمة جانبا كبيرا من

البعد عن الروح الاصلية للديانة المسيحية . وما سهل مهمة الانسانيين في هذا المجال ان العديد منهم كانوا في الاصل من رجال الدين او درسوا في مؤسسات الكنيسة الكاثوليكية فوقفوا بشاقب نظرهم وبعمق على ثغرات هذا الجهاز الحساس وحددوا عن كسب المساويء الكبيرة التي كان يتخبط فيها رجاله بدءا بالرأس وانتهاء بالقاعدة . ولقد بلغ رد فعل بعض الانسانيين نحو الكنيسة حد انهم رفضوا كل ما يتعلق بها . فان الاديب والمفكر الفرنسي رابلييه (Rabelais) (١٤٩٤) -

(١٥٥٢) لم يعاد الكاثوليكية فحسب بل انه لم يرض حتى بالاراء البروتستانتية الاصلاحية ، فسخر بأسلوب لاذع من التعصب الديني الاعمى وانتقد نواقص المذهب البروتستانتى مما عرضه الى هجوم مباشر من شخص الزعيم البروتستانتى المعروف كالفن . وقد ذهب بعضهم الآخر الى مدى أبعد حتى من ذلك فتعرضوا بسبب آرائهم الى ارهاب السلطة والكنيسة التي حرمت ، كما سنرى ، تداول مؤلفاتهم ، كما انهم العديد منهم بالهرطقة فادخلوا السجن وتعرضوا للتعذيب او احرقوا بالنار .

لم يقتصر رد فعل رجال النهضة على الكنيسة وتعاليمها ، بل انهم رفضوا جميع مظاهر الفنون والآداب المرتبطة بالعصر الوسيط الذي اعتبروه

الى قطاع طرق وذئاب» (٢) . وفي الواقع لولا حماية بعض المتنفذين للورينزو فالأ ولولا الخشية من النتائج المحتملة لما ترددت البابوية في تقديمه الى محاكم التفتيش . وعلى اى حال فان عمل «صاحب الفكر الثاقب» لورينزو فالأ كان من القوة والعمق بحيث يعتبره العديد من المؤرخين « بداية للدراسات الانتقادية العلمية الحديثة » (٣) . فمن خلال التمعن الناقد والمقارنة الدقيقة وجد فالأ ان اللاتينية التي دونت بها الوثيقة تختلف في نقاط حساسة عما كان شاعرا في عهد قسطنطين وأن بعض المدن التي وردت اسمائها في « التبة » لم تكن قد بنيت بعد في ذلك العهد (٤) .

اسهمت هذه الاهتمامات والاستنتاجات المهمة في تجريد رجال الكنيسة من سلاح ماض هو تفسير مضامين الكتاب المقدس والمؤلفات الدينية القديمة كما يشاؤون وبناء تعاليم على اساسه بعيدة كل

(٢) مقتبس من ا . ا . جوير ، التطور اللاحق للحركة الانسانية في القرن الخامس عشر ، باللغة الروسية ، « تاريخ العالم » ، الجزء الثالث ، ص ٦٢٨ .

J. R. Strayer and others, Op. Cit., 354. (٣)

تأثر العديد من أبرز رجال الفكر بلورينزو فالأ فيما بعد منهم ارازمس وفولتير وآخرون كثيرون .

R. Weiss, Op. Cit., P. 43. (٤)

فترة تخلف وجهالة فاطلوا عليه اسم « العهد الفوطي » وهو ما كان يعادل في المعنى اسم « البربر والبرابرة » انذاك، علما بانهم لم يكونوا محققين في ذلك كليا، لانه لم يخلف، وما كان بالامكان ان يخلو، العصر الوسيط من مكتسبات وتطورات مهمة كانت نتيجة حتمية للتطور المستمر للجماعات البشرية. وعلى اى حال فقد دفع موقف الانسانيين هذا، الناس الى الا يروا في العصر الوسيط سوى ظلام دامس وقيود ثقيلة مما اسهم بشكل مباشر في تهيئة الجو الفكري الملائم للانتقال الى عصر جديد ارقم. ومن الجدير بالذكر ان الانسانيين هم الذين استخدموا لأول مرة مصطلح « القرون الوسطى » للدلالة على العصر الذي سبق النهضة واتبع عهد الرومان والاغريق حسب مفهومهم .

٢ - قلنا ان اهتمام الانسانيين بالتراث القديم كان يشكل واحدة من الخصائص الاساسية لعصر النهضة مما ادى الى نتائج علمية وثقافية مهمة للغاية ولا سيما ان ذلك التراث وان لم يهمل كليا في العصر الوسيط الا انه قد شوه الى حد كبير . فتحمس رجال النهضة في جميع نواذر المخطوطات المهمة في الكنائس والاديرة القديمة واسبح للمبشرين بالمخطوطات وكلاء يبحثون عنها في كل مكان ويبدعون لقاءها بمبالغ مغرية . كما بدأت حركة نقل واسعة

في نفس العصر قام عدد من التجار الاوروبيين المتأثرين بافكار النهضة بجمع بعض الاثار القديمة

(٥) مع تقدم الشماليين في اسيا الصغرى واقتراب خطرهم من عاصمة البيزنطيين القسطنطينية (استانبول) بدأ علماءها يتأثرونها الى ايطاليا فاقبلت معهم مجموعات قيمة من المخطوطات القديمة .

جاءت وليدة ذلك التقدم . اما منطلقها الثاني فقد اربط بالنتائج الثابتة المتمخضة عن المكتسبات العلمية التي عززت الى حد كبير اساس الافكار الجديدة بغضها الاسس الواهية للفكر الانقطاعي .

امتدت آثار التطور العلمي الجديد الى مجالات مختلفة ، وقد احدثت انقلابا فعليا في حقول مينة منها . ففي مجال الفلك ، مثلا ، توصل العلماء في عصر النهضة الى نتائج باهرة بمعنى الكلمة . فان كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٢) هو اول من وضع نظرية المجموعة الشمسية القائلة بان الارض تشكل احد توابعها وهي تدور حول الشمس وحول مدارها في آن واحد ، بينما كانت الكنيسة تعتبر الارض مركزا ثابتا للكون تدور حولها الاجرام السماوية ، بما فيها الشمس (٦) . وقد قام عدد من العلماء فيما

بعد ، وخاصة جوردانو برونو (Brunno)

(١٥٤٨ - ١٦٠٠) وغاليليو غاليلي (Galilei)

(١٥٦٤ - ١٦٤٢) الايطاليان ، بتطوير نظرية كوبرنيكوس . فان برونو قد اشار الى وجود مجموعات شمسية كثيرة اخرى الى جانب مجموعتنا الشمسية والتي لا يستطيع سكان الارض رؤيتها ،

(٦) اهدى نيكولا كوبرنيكوس بحثه الى شخص البابا : .

في الشرق وبنقلها الى بلدانهم حيث حظيت باهتمام كبير من لدن بعض الانسانيين ، وقد دشّن ذلك بداية ظهور علم جديد في عصر النهضة يهتم بدراسة الكتابات والنقوش القديمة يعرف بالـ "Epigraphy"

٢ - شهد عصر النهضة ، ولا سيما في القرن السادس عشر ، تقدما كبيرا في حقل العلوم الطبيعية التجريبية . ففي العصر الوسيط لم يجر سوى تأكيد محدود على الكيمياء ، ذلك لان البعض كانوا يعتقدون بإمكانية تحويل المعادن الاعتيادية الى اخرى نيرة بواسطة تفاعلات كيميائية (*) . وقد جرى اهتمام اقل من ذلك وباسلوب غير علمي بالفلك لعلاقته بالتنجيم ، بينما اهتمت دراسة جميع الجوانب الاخرى من العلوم الطبيعية بل وشوهت سم كبير منها .

اما في عصر النهضة فقد غدا الاهتمام بالعلوم الطبيعية - مثلما ذكرنا - جزءا ملازما لمتطلبات المجتمع الجديد . فان البورجوازية النامية كانت بحاجة الى تقدم مثل هذه العلوم من منطلقين ، الاول لانها كانت تشكل عنصرا اساسيا لتطوير امكاناتها الاقتصادية نتيجة الاختراعات المهمة التي

(*) وهو ما عرف عند العرب بالسيما .



بالمح لظرد الارواح الشريفة وبشر الساق بالناس من
« انجع » وسائل العلاج الطبي (٧) .

لم تكن النتائج التي توصل اليها العلماء في
حقول البحث الجيولوجي والتعدين قليلة الشأن .
فعلى سبيل المثال نذكر ان العالم الالماني جورج باوير
(١٤٩٤ - ١٥٥٥) خلف لنا مؤلفاً ضخماً في هذا
المجال اسماء « حول التعدين في اثني عشر كتاباً »
يعتبر من اهم المصادر الاصلية للدراسة تطور وسائل
الاتاج والتكنيك المستخدم لاستخراج المعادن خلال
المرحلة المبكرة للتطور الراسمالي الاوروبي .

ان واحدة من اهم نتائج النهضة هي انها
تحولت الى عامل مساعد مهم في تكوين اللغات
القومية الاوروية الموحدة . ففي السابق كانت
العلوم والاداب حكراً على فئات صغيرة من المجتمع
كانت معرفة ابنائها للابنية تعتبر من مظاهر تمييزها
عن عامة الناس وهي تحولت بحكم ذلك الى لغة
التأليف والنقاش وحتى المخاطبة بين مثقفي العصر

(٧) يروي اسامة بن منقذ شواهد في غاية الغرابة عن الطب
الاوروبي ايام الحروب الصليبية (للتفصيل راجع :
الدكتور عبدالقادر احمد اليوسف ، علاقات بين الشرق
والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ، صيدا
- بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٦٨ - ٢٧٠) .

كما اكد هو ، بسبب بعدها الكبير ، وهو نفس
الاستنتاج الذي توصل اليه الفلكيون خلال العقود
الاخيرة ، ثم ان برونو توقع وجود الحياة فوق
الكواكب الاخرى ايضا . اما غاليليو فقد وضع
اسس العلم التجريبي الحديث ، فاثبت بالتجربة
ان مدة ذبذبة البندول ثابتة مهما تغيرت سمعتها ،
وبين خطأ استنتاجات ارسطو حول حركة الاجسام
فهي تسقط - كما اوضح - بنفس السرعة وبعجلة
ثابتة مهما اختلف وزنها وايدت نظرية كوبرنيكوس .

بهذا الاسلوب وبحكم استنتاجاتهم العلمية
دشن هؤلاء العلماء بداية عزل العلوم الطبيعية عن
اللاهوت .

حقق علماء النهضة مكتسبات مشابهة او قريبة
في مجالات البحث الطبي (لا سيما التشريح) وفي
الرياضيات والجيولوجيا والتعدين . فانهنك
الجراحون في تشريح جسم الانسان وتطوير الاناثوميا
وتوصلوا الى استنتاجات مهمة اسهمت جدياً في
تطوير هذا العلم المرتبط بحياة الانسان مباشرة
والذي تحول الى موضوع اساسي للتدريس في
بعض الجامعات الاوروية . وبذلك لعب علماء
النهضة دوراً كبيراً في تحرير العقلية الاوروية من
الخرافات التي جعلت من شق الرؤوس وذرها

باللغات المعاصرة اجمال اعلام النهضة للغات القديمة، وعلى راسها اللاتينية التي لم تفقد أهميتها من وجهة نظر علمية بحثة حتى يومنا هذا . فقد تخصص عدد غير قليل من الانسانيين في دراسة اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية القديمة . وكان معظمهم يجيدون اللاتينية بطلاقة ويتأهون بذلك كتعبير عن تمسكهم بالتراث القديم الذي اعتبروه تقيضا للقيم السائدة فارادوا عن طريق اللاتينية اقتباس ما يمكن تحويله الى سلاح ماض ضد تلك القيم .

ولكن من المهم ان نلاحظ بهذا الصدد حقيقة اخرى هي ان معظم الانسانيين الذين كتبوا باللاتينية كانوا يكتبون في الوقت نفسه بلغاتهم القومية ، كما ان مؤلفاتهم اللاتينية كانت تترجم بعد فترة وجيزة لم تكن تتجاوز احيانا السنة الواحدة الى اللغة القومية بل والى عدد من اللغات الاوروبية المعاصرة . والاهم من ذلك ان رجال النهضة قصروا الكتابة باللاتينية في الغالب على تلك الحقول والمواضيع التي كانت تهتم العلماء والفلاسفة ورجال السياسة في الصميم ، لذا ارادوا مخاطبتهم بلغتهم دون ان يتغير هدفهم الاساس - هدم صرح الفكر الاقطاعي الكنسي . بل ان بعضهم كتب باللاتينية عمدا لانه كان يخشى استنكاف من يخاطب ويناقش قراءة نتاجاته فيما لو كتبها باللغة القومية الدارجة . مع

الوسيط مما ساعد بشكل غير مباشر على نمو اللهجات المحلية وازدياد التباين بينها . ولكن مع تغير النظرة الى الفرد المجرد كأهم عنصر في المجتمع كان من الطبيعي ان تتغير النظرة ايضا الى كل ما يتعلق بحياة هذا الفرد المادية والمعنوية . وتأتي اللغة من بين القضايا الاساسية التي تأثرت مباشرة بتأثر هذا التغيير ، اذ تحولت مظاهر النهضة الى مقومات مهمة لظهور لغات ادبية موحدة في اقطار اوروبية مختلفة . فلقد بدأ عدد كبير من رجال النهضة ، لا سيما الادباء منهم ، يكتبون للناس وبلغة الناس جاعلين من الثروة الفنية الكامنة في الادب الشعبي اداة مهمة للتعبير عن افكارهم ومصدر وحي لنتاجاتهم . وخير مثال على هذا الاتجاه الجديد في الكتابة والتعبير هو فرانسوا رابليه الذي كان ابرز علم بين رجال النهضة الفرنسيين . راعى رابليه في كتاباته ذوق القارئ البسيط واعر ، من اجل ذلك ، تقاليد الادب الشعبي المتداول اهتماما كبيرا وكتب بأسلوب رائع ، غني وقريب الى حد كبير من الكلام الشائع بين الناس مما جعل منه ابرز اديب فرنسي في القرن السادس عشر وتعد اصبح لمؤلفاته ، مثل مؤلفات العديد من رجال النهضة ، رواج كبير بين الناس .

لم يمن مثل هذا الاهتمام النوعي الجديد



نتائج عصر النهضة ، والادبية منها بشكل خاص ، كان يفضح عيوب المجتمع الاقطاعي ويشر بالتراث بأسلوب شيق يستهوي حتى القارئ البسيط الذي تضافته الى كل ذلك اصبح تداول الكتب في مقدوره بعد اختراع الطباعة بالحروف المتحركة في اواسط القرن الخامس عشر .

يدخل اختراع الطباعة الحديثة ضمن اهم المكتسبات العلمية والثقافية لعصر النهضة واستجابة رائعة لمطالباتها . فان الاهتمام المتزايد باستنساخ المخطوطات القديمة باكثر عدد واحسن شكل ممكن دفع بالاوربيين الى اقتباس الطريقة الصينية للطبع بواسطة الانواع الخشبية المحفورة ، ومن كاتب آخر حاول الانسانيون والصار الاصلاح الديني الخروج على احتكار الكنيسة الكاثوليكية وقساوستها للكتب الدينية بالعمل الجاد في سبيل نشرها على اوسع نطاق ممكن ، حتى يتشبعوا للناس مدى ابتعاد البادية عن القرب الاصلية لديانتهم . ومنذ ان ثبت انني يؤمن انه المكتانية تحويل اللغات القومية الى وسيلة للتعبير الفكري بدل اللاتينية لغة الخواص ، اشتدت الحاجة الى الكتب بشكل لم يسبق له مثيل ، ذلك لانها بدأت تأخذ مسيلها الى العوام كذلك .

ذلك بدأت هذه الظاهرة تختفي بسرعة ، فقد قل عدد الذين كانوا يكتبون باللاتينية ، وبشكل خاص في مجال الانتاج الادبي ، الى ان توارى الامر كلياً كظاهرة ثقافية ارتبطت بعصر معين . وفي الاخير ظلت اللغة اللاتينية تشكل مصدراً مهما لصياغة المصطلحات العلمية الجديدة وذلك لسهولة الاشتقاق والتركيب فيها ولسهولة التعبير عنها .

تفاعلت هذه الحقائق مع عوامل اخرى وافقت تكوين السوق الموحدة لتتحول الى عامل مهم في عملية تبلور اللغات القومية الايطالية والانكليزية والفرنسية والالمانية وغيرها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وقد ساعد نفس الشيء على نزوح الاداب القومية الاوربية التي غدت في متناول الجميع ، على عكس نتائج عصر ما قبل النهضة التي اقتصر على النخبة من العارفين للاتينية القديمة .

هـ - اسهمت افكار النهضة ونتائجها باشكال مختلفة في بعث الشعور القومي بين ابناء العديد من الشعوب الاوربية ، لا سيما لان تحويل اللغات الحديثة الى اداة للتعبير عن النتاج الفكري لعب دوراً كبيراً في رفع وعي الناس الذين أصبح ذلك النتاج في متناولهم . ويزداد تأثير هذا العامل اذا اخذنا بنظر الاعتبار حقيقة ان الجانب الاعظم من



أصبحت كتب التعليم بفضل الطباعة الحديثة نسي
متناول أبناء الطبقات الفقيرة أيضا وذلك نتيجة
توفرها وبفضل رخص أسعارها .

ومع أن غوتنبورغ وشركاءه حاولوا الاحتفاظ
بسر الاختراع الجديد أطول فترة ممكنة إلا أنه
سرعان ما انتشر في ألمانيا والاقطار الأوروبية الأخرى
وعلى رأسها مهد النهضة إيطاليا . فلم ينقض أكثر
من نصف قرن ونيف حتى وصل مجموع ما طبع
من الكتب بواسطة الحروف المتحركة في أوروبا
حوالي ٣٠ ألف كتاب معدل المطبوع من الكتاب
الواحد ٣٠٠ نسخة ، بمعنى أن مجموع ما طبع من
الكتب خلال أقل من ستة عقود كان ٩ ملايين
نسخة مما شكل بداية مهمة لظهور أساس مادي
عظيم للتطور العلمي والثقافي الهائل الذي غير وجه
العالم بشكل سريع . فلا غرو ، والحالة هذه ، أن
اعتبر المؤرخون عمل غوتنبورغ أعظم مكسب ثقافي
قدمه الشعب الألماني للبشرية في القرن الخامس عشر
فهو ، كما يقول أحدهم « من النوع الذي يحدث
مرة واحدة ولن يتكرر أبدا » (٨) .

٦ - كان من الطبيعي أن تؤدي التغييرات
الجلدية والإبداعات الخلاقة التي رافقت النهضة

G. C. Sellery, Op. Cit., P. 234.

(٨)

استوجبت هذه العوامل ، مع غيرها ، تطوير
وسائل نشر الفكر لتواكب المهتمات الاجتماعية
الجديدة . فاجرى الأوروبيون تحسينات ملموسة
على الطبع بواسطة الألواح الخشبية ، ثم حدثت
المفاجأة الكبرى في حوالي العام ١٤٤٥ عندما اهتدى
الألماني يوحنا غوتنبورغ (١٤٠٠ - ١٤٦٨) إلى
منع أول آلة طبع خشبية تعمل باليد وتستخدم
الحروف المتحركة ، بلغت طاقتها القصوى طبع
١٠٠ صفحة في الساعة مما كان يشكل تطورا نوعيا
خائلا في عالم الطباعة .

ولد اختراع غوتنبورغ وفي أحشائه بذرة
التطور وقوة النماء السريع وامكانيات العطاء الواسع .
فقد أسهم بقسط كبير في التقدم العلمي وبمث
التراث وانتشار الأفكار الرائدة للنهضة وما تبعها
من فكر متحرر وفي تعميم الثقافة القومية وبلورة
اللغة الأدبية الموحدة لجميع الشعوب بالتتابع .
وسرعان ما تحول الاختراع الجديد إلى حافز معنوي
كبير بل ومادي للاقبال على التأليف بعد أن غدت
السوق مكان عرض الكتب للجميع بدل المكتبات
الخاصة القليلة التي كان نطاق تداول محتوياتها
محدودا للغاية . ولولا اختراع الطباعة لظلت الكتابة
والقراءة والتعليم بشكل عام حكرا على النخبة من
الطبقات الاجتماعية العليا ورجال الدين ، بينما

... وقد قضى العديد من علماء ومفكري النهضة
... أدخل آقية السجن الموحشة أو صعدوا
على أعواد المشايق أو أخرجوا وهم أحياء ... لأن
العالم والمفكر الإيطالي برونو قضى ثماني سنوات
... جدران محاكم التفتيش واقبية تعذيبها المرعبة
... خرقه علنا في احتفالات ساحات روما في تشرين
الثاني عام ١٦٠٠م ... أثناء العالم اللغوي الفرنسي
دولبيد فقد نفذ فيه حكم الموت خرقا باحدى ساحات
باريس في آب ١٥٤٦ لأنه بشر من خلال مطبعته
الخاصة بالفكر الإنسانيين المتحررة .

ولكن عبثا حاول الفلاسيون حجب الشمس
بالغريبال وأرجاع عقارب الساعة الى الوراء ... والدليل
المعبر الذي يستحق الذكر هنا هو ذلك النصب
التذكاري الشامخ لدولبيد الذي رفع عنه الشار
عام ١٨٨٩ في احتفال مهيب بنفس المكان حيث أتت
فيه التيران على جسده دون ان تتمكن من فكركه
السلمي ... وهكذا تحول موقع فاشاة
العام ١٥٤٦ الى ساحة جميلة يباريس بزينةا تمثال
ليروي بصمت مدو قصة رائعة للإيجيال .

(٨) ... جوزيه اتو برونو بشيات عن افكاره ... وقد تميز
... خارقة وضلابة نادرة ، حتى انه يوليه الز الحكام
... صدور حكم الموت عليه حرفا فإلا لهم شهيم : (اغلب
... تصدرون حكمهم بشوية أكبر مما افشاء به اتانا .

الى تعميق مظاهر الصراع في المجتمعات الاوربية
المتقدمة ، ذلك لانها كانت تتميز بطابع تمرد صارخ
على قيم الاقطاع ومساوى الكنيسة الكاثوليكية
وهي شكلت من هذا المنطلق نواة الفكر البورجوازي
الثاني . ثم ان طابع التمرد المذكور لم يقتصر على
حقل دون آخر ، بل انه عبر عن نفسه موضوعيا في
مجال العلوم التجريبية البحتة البعيدة عن السياسة
والادب بشكل اكثر بروزا من معظم المجالات الاخرى
لان النتائج العظيمة التي توصل اليها العلماء فضحت
بشكل مباشر الافكار المتخلفة التي كانت تثير بها
الكنيسة والتي ظلت تقيد عقول الناس على مدى
قرون طويلة . لذا لم يكن عبثا ان لا تقتصر مواقف
الكنيسة والسلطة المشددة للغيابة على اوتك
الإنسانيين الذين جاهدوا لكثلكة عداءهم الصريح بل
تمتد الى عدد كبير من اعلام النهضة البارزين وعلى
راسهم بعض العلماء . ومن المؤشرات المهمة لهذه
الحقيقة النشاط الكبير الذي زاولته محاكم التفتيش
في هذه الفترة بالذات . فانها اعلنت ، مثلا ، بطلان
افكار كوبرنيكوس وحرمت كتابه الذي قضى العالم
الكبير كل حياته في تأليفه ، كما فعلت الشيء نفسه
مع غاليليو الذي حوكم وارغم على نيل تأييده لنظرية
كوبرنيكوس عن دوران الارض حول الشمس .

الزدهرة التي ساعدت ظروفها على ان تحصل المرأة فيها على درجة عالية من الثقافة (١٠) .

لم تقتصر نتائج النهضة والحركة الانسانية على ما سبق ذكره ، بل انها ادت في الوقت نفسه الى نتائج اخرى كثيرة في مجالات الابداع الفني والتطور الفكري والانتاج الادبي وغير ذلك من حقول المعرفة الانسانية المهمة التي تتجسد بشكل واضح من خلال استعراضنا لحياة وابداعات عدد من أبرز اعلام النهضة الخالدين .

(١٠) "Renaissance and Reformation, 1300-1648", Edited by G. R. Elton. second edition, New York,-London. PP. 85-86.

عند بحثنا عن اعلام النهضة سوف نرى نماذج اخرى من ضحايا محاكم التفتيش والانظمة الاقطاعية التي لم تات اجراءاتها المتشددة مجرد تعبير عن تمييز الصراع بين القديم والجديد ، بل انها عبرت بقسوتها ايضا عن محاولات يائسة للحفاظ على قواعد نظام نخرت الافكار الجديدة اسسه من الاعماق وبشكل اصبح من المتعذر عليه الصمود طويلا .

٧ - ادت النهضة الى حدوث تغيير جدي في الوضع الاجتماعي للمرأة الاوروبية . وقد نجم ذلك عن عاملين مهمين ارتبط اولهما بنظرة الانسانين الى موقع الفرد في المجتمع الذي تشكل المرأة نصفه او اكثر ونتج الثاني منهما عن الحاجة الى جهود المرأة في الانتاج ، ولا سيما في بدايات ظهور الرأسمالية عندما ازداد الطلب على الايدي العاملة بشكل لم يسبق له مثيل . وعلى أي حال فقد نزلت المرأة الاوروبية في عصر النهضة الى ميادين الانتاج الصناعي والتأليف والعمل المسرحي والنقاش الفلسفي واصبحت تتمتع بمكانة اجتماعية اسمى من السابق ، وبشكل خاص في المدن الايطالية .



قدمت من أبناء بررة مستعدين للعمل والتضحية
بتفان أصيل في سبيل دفع عجلة التطور الاجتماعي
خطوات كبيرة الى أمام . فقد أكد العديد من
الإنسانيين على ضرورة العمل الجاد ، ولا سيما أنهم
كانوا يرون أن الإنسان لا يولد عالما أو مفكرا إنما
يستطيع بلوغ مثل هذه المراتب وغيرها عن طريق
بدل الجهد المتواصل . وكانوا هم خير نموذج لذلك
الإنسان الأقرب من الكمال الذي كان يعمل ليل نهار
ويخدم باخلاص ويحاول أن يفيد ويستفيد بكامل
طاقاته . ويمكن أن نورد بهذا الصدد بعضا من
أقوال الإنساني الإيطالي بيير باولو الذي كان يرى
غاية السعادة في العمل الدؤوب ، حتى أنه شبه
الليل بالموت « ما دام يذهب الوقت في النوم هباءا »
حسب قوله . ومن آرائه أيضا - وهو كان يخاطب
في ذلك العلماء بشكل خاص - أن من ينضح العرق
يتغلب على الصعاب وينال العلى (١) .

بمثل هذه الروحية العالية عمل وانتج رجال
النهضة . وفي الواقع لا يمكن قطعا حصر أسماء
جميع مفكري ورسامي وأدباء وعلماء ذلك العصر، إذ

(١) ن . ل . ب . بيفياكينا ، الإنساني بيير باولو فيرجيرو - العمل
الفكري والعلماء ، - « أوروبا في التصور الوسطى » .
اقتصاد ، سياسة وثقافة ، باللغة الروسية ، موسكو ،
١٩٧٢ ، ص ٢٤٢ .

الفصل الرابع

الغالدون

مما تقدم يبدو واضحا أن النهضة لعبت دورا
كبيرا للغاية في الحياة الثقافية لاقطار أوروبا وأثرت
عن طريقها في مجمل الفكر والفن الإنسانيين ، وهي
تشكل بذلك نقطة مضيئة في الحضارة البشرية .
فالى عهدها تعود النتاجات الأدبية والفنية الخالدة
التي بلغت قمة الروعة والجمال ، واليها يعود فضل
التطورات الكبيرة في مجال احياء التراث القديم
والتقدم الكبير الذي امتدت آثاره الى مختلف حقول
العلم والمعرفة بما فيها الفلسفة والعلوم الطبيعية
والإنسانية والتربوية والقانون والسياسة وغيرها .

اشتركت جميع الشعوب الأوروبية ، كما
سبق الذكر ، في خلق مقومات النهضة وذلك بما
قدمت لها من ثروة غنية كامنة في تجارب الماضي
والفولكلور الشعبي والتقاليد القومية وأخيرا بما

توجد مئات من الاسماء اللامعة التي تركت اثارا خالدة في شتى مجالات حقول المعرفة سبق أن تطرقنا الى عدد قليل منها من خلال عرضنا لخصائص ونتائج النهضة . وسنحاول فيما يلي اعطاء فكرة عامة عن نشاطات عدد آخر من هؤلاء العمالقة الافذاذ بشكل يمكن من خلاله تقديم صورة معبرة عن واقع النهضة في مراحلها المختلفة .

رواد النهضة

كان من المنطق أن يظهر رواد النهضة والحركة الإنسانية في ايطاليا قبل غيرها . فقد وضع المفكرون الثلاثة دانتى وبترارك وبوكاشيو هنا اللبنة الأولى في صرح النهضة الشامخ مما يعطى نشاطاتهم وأفكارهم أهمية خاصة يمكن الوقوف من خلالها على الأبعاد الأساسية للمرحلة المبكرة من ميلاد النهضة .

دانتى (١٢٦٥ - ١٣٢١) :

دانتى الجيجيري شاعر ايطالي معروف ويعتبر باتفاق الآراء المبشر الأول للنهضة . ولد في فلورنسا واشترك بنشاط في حياتها السياسية وكان يعيل الى الاتجاهات المعارضة هناك حتى انه حكم غيبيا لهذا السبب فبقي يعيش بعيدا عن مسقط رأسه الى ان وافاه الاجل حيث دفن في رافنا .

(٢) حسب تأكيد بعض المؤلفين تحتاج دراسة دانتى وترجمة الكوميديا بالنسبة للمتخصصين الاوروبيين ، حيث الاجواء العلمية المناسبة ، الى وقت يتراوح بين الـ ١٥ و الـ ٢٥ عاما .

(٣) ١ . ا . جوير ، دانتى ، باللغة الروسية ، « تاريخ العالم » ، الجزء الثالث ، ص ٦٢١ .

كتب دانتى باكورة نتاجه الادبي «حياة جديدة» باللغة الإيطالية وهي عبارة عن مجموعة قصائد مع تعليقات نثرية يروي فيها الكاتب قصة جبه لفنائه اخلاصه الفلورنسية باتريس بورتيناري والتي بدأت منذ لقائه الاول بها في التاسعة من عمره ولم تنته بوفاتها في الثامنة عشرة من عمرها بل تحولت الى مصدر وحي للعديد من ابداعاته الشعرية . لانتصر أهمية هذا الكتاب على شكله ومضمونه الرفيعين فحسب بل المهم فيه أيضا ان صاحبه اثبت بالتجربة امكانية التحدث للناس عن القضايا الحياتية الواقعية بأسلوب ادبي يفهمونه كما يعيشونه فجاء ذلك بمثابة خروج جريء على الطوق المدرسي التقليدي السائد الذي حدد مجال التحرك الادبي بشكل جامد .

بلغ ادب دانتى الدروة شكلا ومضمونا في رائعته « الكوميديا » التي عرفت من بعده مباشرة بـ « الكوميديا الالهية » ، فقد رصعها بذر اللججات الإيطالية ، مع تأكيد خاص على اللهجة التوسكانية ، وبروائع الحكم والامثال الشعبية وبالنماذج التاريخية الحيوية وهي تميزت ، نتيجة كل ذلك وغير ذلك ، بأسلوب من البناء الفني المتناسق لم تبلغه اي لغة اوربية اخرى يومذاك . فلا غرو ان تحولت « الكوميديا الالهية » الى القاعدة الرصينة للغة الادبية الإيطالية الموحدة المليئة حتى اليوم

على الفئة المختارة من عارفي اللغات القديمة ، بل غدا بطاقاته الخلاقة في تناول الجميع تقريبا .

بلغ حماس دانتى للغة القومية حد انه لم يكتف بالتأليف بها فحسب بل جلب كذلك انتباه الناس والمختصين اليها كماله لفسوي بان كرس لدراستها وللتأكيد على أهميتها وقوة أدائها عددا من البحوث منها كتابه « حول اللغة الدارجة » (١) وأول كتاب في المقارنة عن اللغة الرومانية وشعرها . وما أروع تشبيه دانتى للغة القومية بـ « خبز الشعير » ، لان هذا بالذات كان يشبع بطون الالاف المؤلف من بسطاء الطليان يومذاك ، بينما كانت انواع الخبز الاخرى ، شأنها شأن اللغة اللاتينية ، حكرا على فئة قليلة من الناس . ان في هذا التشبيه الموفق مغزى عميقا من شأنه اعطاء صورة معبرة واضحة عن واقع توجهات هذا الشاعر العظيم . فهو اراد ان يكتب للناس ، للشعب الإيطالي ، فاختر لغة الناس لمخاطبتهم وتوجيههم ، ووقف بثبات المؤمن ضد الذين يحاولون الانتقاص من « لغتنا الشعبية الجميلة » كما كان يقول .

(١) الله باللاتينية لانه اراد به جلب نظر الكتاب والعلماء الى امكانيات اللغة الإيطالية في التعبير فقد كان يخشى استنكاف هؤلاء تداوله فيما لو كتبه بالإيطالية .

لإنسان عصره في نظر اعلام النهضة . مع ذلك ترافق
دانتني الى الفردوس أحب انسانة من مجتمعه . ولا
يمكن تجريد ذلك ، بالرغم من قوة خيال الشاعر
وتعلقه بحبه لباتريس وتمسكه بتلابيب المسيحية «
من عنصر الاعتزاز بالفرد الجيد المعاصر له الذي
جعلته في الجنة جنبا الى جنب أحب شخص الى
قلبه .

تميز « الكوميديا الالهية » بطابع موغلي
ديني عام لم يكن بإمكان دانتني التجرد منه ، الا انها
تحتوي الى جانب ذلك على اقصى وأبلغ نقد ادبي
وجه الى الكنيسة ورجالها حتى ذلك اليوم . فقد
كرس دانتني الانشودة الاولى التي تدور أحداثها في
الجحيم لتعمية انانية وتفسخ وقسوة واطماع رجال
الكنيسة . والاهم من ذلك هو التقاء دانتني في
الانشودة التاسعة عشرة وفي سفير النار ايضا بعدد
من البابوات والقساوسة الذين باعوا صكوك
الغفران جنبا الى جنب مع الذين اجرموا في حياة
الدنيا او خانوا الاوطان مع اسوأ نماذج البشرية
من سراق وقطاع طرق وغشاشين ومناقضين أفاكين
وغيرهم . وجعل دانتني من النار الازلية دارا ابدية
للبابوات الذين يذكر في ملحمته التقاء بهم وتحدثه
معهم . بينما اولى شعراء الوثنية وفلاسفتها نسي
المقابل احتراماً كبيراً لانهم خدموا العلم والمجتمع

بحكم وامثال وتعايير دقيقة استخدمها دانتني ببراعة
في « الكوميديا » .

تتمدى أهمية « الكوميديا الالهية » المؤلفة من
مائة انشودة تضم أكثر من أربعة عشر الف بيت ،
الناحية اللغوية الى حد بعيد جدا . فقد وردت
فيها افكار اجتماعية وسياسية - فلسفية عميقة في
مضمونها المليء باشجع تحد صارخ للقيم البالية
وبتطلعات ذكية نحو عالم أفضل بأسلوب مستعار .
فالكوميديا ملحمة شعرية خيالية ينتقل صاحبها من
خلالها الى العالم الثاني المؤلف من ثلاثة أقسام أو
مراتب هي الجحيم أو النار والمطهر أو الاعراف
والفردوس أو النعيم . ويختار دانتني من الشعراء
الروماني الوثني فيرجيل (٧٠ - ١٩ ق م) دليلاً
له خلال مروره بأوار الجحيم ورحاب الاعراف حتى
بلوغه اعقاب الفردوس حيث كانت حبيبته باتريس
في انتظاره .

لم يات اختيار دانتني لفيرجيل دليلاً له في
جولته عيشاً ، بل كان في الامر مغزى عميق . فقد
عاصر فيرجيل ايضا فروب عصر وتمنى في أشعاره
بزوغ فجر « العصر الذهبي » وتغنى بتقاليد روما
القديمية التي آمن بمظلمتها فاحبها من الاعماق . ثم
ان فيرجيل كان بخلقه الرقيق وتواضعه الاصيل
ونشاطه الجهم واخلاصه النادر يمثل خير نموذج



ويميل الى الغاء السلطة الدينية للبابوات (هـ) وكان كل ذلك يدخل ضمن المستلزمات الاساسية لتطور البلاد السياسي .

يحق المرء في « الكوميديا الالهية » بظهور بوادر ومؤشرات فكرية لعصر جديد . فبالاضافة الى كل ما تقدم يتحدث دانتى من خلال رائعته وعبر الحوار الذي يجريه مع مختلف الشخصيات التي يتصور الالتقاء بها ، يتحدث في الواقع عن الانسان الجديد في مدن ايطالية متطورة ويؤكد بصور مختلفة على ذات الفرد وقيمة الانسان « الذي ولد ليخلق عاليا » . وهو يرى بعمق جمال الطبيعة ويستقي منها بالذات المناظر الخلابة التي يقع ناظره عليها في رحاب الفردوس الفسيحة .

ما سبق يبين كيف ان « الكوميديا الالهية » كانت تتسم بحركة متحمسة نحو الامام ، وهي مليئة بروح متفائلة تبشر عن ايمان بامكانية ايجاد حلول لجميع مشاكل المجتمع الايطالي . وهذا ما دفع دانتى الى ان يختار للحمته الشعرية اسم « الكوميديا » الذي كان ادباء العصر الوسيط

(هـ) قبل ان يشبث لودينزو فلازا زور « هبة قسطنطين » انتقد دانتى هذه الوثيقة بعنف دون ان يعرف انها مختلفة (راجع : R. Weiss, Op. Cit., P. 43)

باخلاص فأختار واحدا منهم دليلا له ليصبح هذا النموذج للمفكرين القدماء أقرب شخص اليه بعد حبيبته باتريس التي هي في الوقت نفسه نموذج ، مثلما ذكرنا ، لانسان عصره . وقد اختار الاعراف مكانا للاقدمين المخلصين بما فيهم كل حاكم روماني وثني خدم بلاده او ابتعد عن الفساد والرشوة . ولا شك في ان الحس الديني المرهف لدانتى وتبجيله للمسيحية قد لعبا دورهما الكبير في ان جعل الاعراف ، لا النعيم ، مكانا لهؤلاء ، الا ان ذلك لا يخلو ايضا عن نوع من التفضيل للفرد المخلص المعاصر له . ومهما يكن من امر فان المهم هو احتواء صور « الكوميديا الالهية » الجريئة على نقد صريح ولاذع للكنيسة مع دعوة بليغة للناس الى التمسك بالخلق الفاضل وبالقيم الوطنية الرفيعة ، فهؤلاء فقط هم الذين ينعمون بالفردوس في الكوميديا بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية السابقة في حياة الدنيا .

كل ذلك مهم ، واكثر من مهم . لكن « الكوميديا الالهية » تعتبر ايضا اول قصة تحتوي على مضمون وطني عميق مع تعبير واضح عن الوجود القومي للشعب الايطالي . فلقد كان صاحبها يحلم بالوحدة الايطالية وبالقضاء على الحروب والنزاعات الداخلية



لكنه بشر الى جانب ذلك ببعض الآراء المثالية كوسيلة أساسية ناجمة في رايه لايجاد مخرج لتلك المشكلة السياسية العويصة من قبيل التطوير الدائم للقيم المعنوية لدى الإنسان وتاصيل الحب للعلم بين جميع الناس . وقد ضم آراءه السياسية هذه بشكل خاص في كتابه « الوليمة » الذي لم ينته من تأليفه . ثم ان عدم توفر الظروف للقضاء على الانقسام والنزاع الاقطاعي الداخلي جعل دانتس يفكر في نظام ملكي موحد للعالم تكون بلاده مركزا له ويجعل من الامبراطورية الرومانية المقدسة التي كادت ان تصبح اقرب الى اسم «يون مسمى» اعظم امل للعالم المسيحي « وخير وسيلة لتحقيق الوحدة الإيطالية . ومن هذا المنطلق ألف كتابا باللاتينية عن الملوك ضمنه انتقادات لاذعة للبابوية بينما احاط سلطنة الامبراطور وامكاناته واهدافه بهالة مثالية بعيدة عن الحقيقة والواقع . لكن حتى ها هنا يجب الانسحاب ان دانتس وضع « ضرورة توافق » ما كان يدعو اليه من نظام سياسي « مع مصلحة كل العالم » على رأس قائمة دواعي اقامته (٨) وانه ظل حتى الرمق الاخير يدعو باخلاص الى ان يسود السلام العلاقات الدولية .

(٨) . للتفصيل راجع :

"The Renaissance and the Reformation 1300-1600", PP. 39-40.

يطلقونه عادة على كل نتاج فني يحتوي على نهاية متفائلة تبشر بالخير والسعادة (٩) ، كما ينطبق على مضمون الملحمة المفهوم الفني الاخر للكوميديا التي تستهدف انتقاد سلبيات المجتمع والعادات البالية بأسلوب ساخر . اما نعتها بالالابية فقد اطلقه عليها فيما بعد المعجبون بالملحمة تعبيراً عن كمالها الذي ظهر في قوة مضمونها وبعد اهدافها وسمو افكارها ودقة تعابيرها وتصويرها الرائع للإنسان والطبيعة وصياغتها الموسيقية الجذابة ومن ثم الجو الروحي السامي الذي تدور فيه أحداث الملحمة . و خلاصة القول ان « الكوميديا الالهية » كانت بحق « المرأة التي عكست كل معارف وآمال ومشاعر العصر » (٧) باروع تعبير وأصدق .

بالرغم من كل ذلك لا تخلو مواقف دانتس ونتائجاته ، بما فيها « الكوميديا الالهية » من بعض التناقض ومن حلقات ضعيفة . فهو قد ادرك نفي المنفى وبعد ان جاب مناطق ايطالية مختلفة ، ادرك اسباب وهن بلاده السياسي فدعا - وكان على حق في ذلك - الى المواطنة الموحدة ونبذ الخلافات ،

(٩) أصل (الكوميديا) متبس من كلمة (Komodia) اليونانية القديمة التي كان يقصد بها في البداية الاغنية الرحة .

A. J. Grant, Op. Cit., P. 464.

الأوروبي . فان العديد من أبرز الكتاب والشعراء والنحاتين والرسامين والموسيقيين المنتمين الى شعوب مختلفة استقوا الوحي في نتاجات لهم من « الكوميديا الالهية » بالذات . وفي الواقع قيم جميع الادباء الاوروبيين المتحررين من قيود الكنيسة ذاتي كساعر مبدع ومفكر عظيم . اما في بلاده فقد تحولت نتاجاته منذ القرن الرابع عشر ، اي مباشرة ، الى مغد لافكار حركة التحرر - الوطني للشعب الايطالي ، وقد برز ذلك بشكل خاص في النصف الاول من القرن التاسع عشر عندما بلغت حركة الوحدة الايطالية ذروتها . كما وجدت افكار ذاتي رواجاً كبيراً بين الحركات الشعبية التي وقعت فيما بعد والتي رسمتها الكنيسة بالهرطقة .

وقبل ان تنتقل الى البحث عن رواد النهضة الاخرين يجدر بنا ان نشير بايجاز الى ان هنالك بعض الأدلة المنطقية تبين بوضوح تأثر ذاتي نبي كوميدياه بصور وآراء عربية الاصل اسلامية الصياغة (٩) وردت في رسالة الففران لابي العلاء الميري وفي كتاب الفتوحات المكية لابن العربي . فان

(٩) كرس العدد السابع من « الموسومة الصغيرة » « ذاتي ومصادره العربية والاسلامية » لعبد المطلب صالح . لهذا الموضوع بالذات . راجع كذلك د . عبدالقادر احمد يوسف ، المرجع السابق ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

هكذا نرى ان ذاتي الذي وضع اليد بمهارة على سليات مجتمعه وحدد بعمق اسبابها واقترح العديد من المستلزمات الواقعية لاستبعادها نراه يتمسك ايضا ببعض الافكار المثالية وحتى المتخلفة يعتبرها وسائل عملية لتحقيق احلامه الرفيعة . وهذا بالذات يفسر لنا بعض الجوانب السلبية او المتناقضة في افكاره التي اصبحت تعبر ، بحكم ذلك ، عن مصالح فئات اجتماعية مختلفة . ثم ان ذاتي لم يستطع التجرد كلياً من قيم العصور الوسطى رغم نبذه المخلص ايها ، وهو امر يجب ان يؤخذ بالحسبان عند تقييم اعمال ونتائج الرائد الاول للنهضة الذي « كان اول شاعر للعصر الحديث » الا انه كان في الوقت نفسه « آخر شاعر للعصر الوسيط » .

لا يمكن ، بالطبع ، لمثل هذه الامور ان تنتقص من مكانة ذاتي الرفيعة . فهو يكفيه الفخر في انه كان اول من دعا في عصر مظلم الى حرية الشعور وانطلاق العقل لفهم العالم واحترام قيم الفرد فايقظ العقول من سباتها الطويل ووجه ضربة قوية الى التيمم الاقطاعية والكانتوليكية السائدة واستحق بحق لقب المبشر الاول لافكار النهضة . ويمكن في ذلك ايضا سر ذلك التأثير الكبير الذي تركته اعمال ذاتي على الادب والفن العالميين وعلى الفكر السياسي



القديم من الانسانيين . ينتمي الى عائلة تجارية فلورنسية طردت مع دانتي من المدينة قبل مولده بعامين بسبب موقفها السياسي . درس القانون والعلوم الدينية ودخل في خدمة الكنيسة . جاب بترارك المدن الايطالية والاقطار الاوروبية المختلفة فاطلع على حياة الناس ومشاكل المجتمع عن كثب .

اعجب بترارك ايما اعجاب بالثقافات القديمة فأولى تعلم اللاتينية اهتماما كبيرا بحيث لم يستطع احد من الانسانيين التعبير مثله بهذه اللغة ولم يضاهاه احد في ولعه بجمع اقدم المخطوطات واندرها، وفي استنساخها وتحقيقتها . فكانت مجموعته من المخطوطات تفوق اي مجموعة اخرى كما ونوعا، بما في ذلك المكتبة البابوية (١١) . قضى بترارك معظم سنوات عمره بين مخطوطاته محققا اياها حتى انه استطاع الكشف عن عدد من المخطوطات غير المعروفة لرجال الفكر القدماء من امثال الكاتب والسياسي والخطيب الروماني شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق.م.) الذي جلب انتباهه بشكل خاص .

جاء اهتمام بترارك بالقديم نتيجة اصطدامه بواقع أفكار العصر الوسيط فاصبح يعتقد ان الاسلوب الذي سلكه الاقدمون هو الطريق الاصوب

R. Weiss, Op. Cit., PP. 24-26. (11)

المؤرخ آسن بلاسيوس بين ان ترجمة الاحاديث المتعلقة بالاسراء والمراجع الى اللغات الاوروبية تعود الى قرون سبقت ميلاد دانتي ، كما الف احد رجال الدين المسيحيين في عهده (عهد دانتي) كتابا عن حياة الرسول وردت فيه اوصاف المراجع والصراف المستقيم وانتشر في اصقاع اوروية شتى . ثم ان دانتي تلقى ثقافته الادبية على يد عالم فلورنسي كان على المام تام بالثقافة العربية بحيث انعكست آثارها في قصائد الفها عندما كان فكر دانتي دخل اوج تبلوره . ولا داعي اصلا للتاكيد على ان دانتي المتبحر في التاريخ والاداب والعلوم كان يهتم حتما بكل حرف يفوه به استاذه وبكل ابداع يسجله براعه .

ان تاجر رائد النهضة الثالث بوكاشيو بقصة الف ليلة وليلة (١٠) بشكل دليلا آخر يجعل من رأي بلاسيوس منطقياً مقنعا ، ولاسيما ان بوكاشيو مع زميله واستاذه بترارك كانا اول مفكرين تأثرا بدانتي وسارا على نهجه .

بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) :

يأتي الشاعر والكاتب الايطالي البدع فرانسيسكو بترارك (Petrarca) على رأس الجيل

(١٠) سنعود الى هذا الموضوع في مكان آخر من هذا الفصل .

لتحرير الانسان وخدمة الفكر والمجتمع فاستلهم
من المؤلفين القدامى الكلمة اللاتينية "humanitas"
وكرر هو ، ومن بعده المتأثرون به ، استخدامها على
نطاق واسع كما حاول بحماس تثبيت قيمها ، فكان
بذلك اول من وضع « المعرفة الانسانية » في مواجهة
مباشرة مع اللاهوت .

كان يكتفى وراء نشاطات بترايك وافكاره
شعور وطني فياض . فقد قيم حكم الرومان القدماء
كمصر بطولي نموذجي في تاريخ بلاده لذا كان يرى في
بعث تقاليده خلق اساس قوي للحياة السياسية
والثقافية المعاصرة ولتحقيق وحدة ايطاليا التي
كانت تشكل حلمه الاكبر : « فمن هو ذا الذي يمكن
ان يخامره الشك في انه لو بدأت روما تمي ذاتها
بنفسها فان الجراة القديمة ستنفجر من جديد » (١٢)
بهذا الاسلوب العميق عبر بترايك عما يجول في
خاطره من شعور وطني وجياش وطموح نبيل .

اذن توجهت تطلعات بترايك في الحياة والابداع
نحو خدمة الحاضر ، فكان نبراسه العمل باخلاص
من اجل الناس والوطن . كما سار على نفس نهج
دانتي حول ضرورة ربط الفرد بذاته لا بانتماؤه

(١٢) مقتبس من : ا . ا . جوير ، فرانجيسكو بترايك ، -
« تاريخ العالم » ، الجزء الثالث ، ص ٦٢٥ .

او انحداره العاليي ووقف من هذا المنطلق ضد
الارستقراطية التي كان ينتمي اليها بنفسه ، وابد
الثوار الذين انتفضوا ضد الاقطاع في روما عام
١٣٤٧ .

عبرت هذه الآراء والمواقف عن نفسها بوضوح
في مؤلفات بترايك (١٣) الذي قرض الشعر وكتب في
التاريخ والسياسة والاخلاق والفلسفة ، فكرس
احدى روائعه الموسومة بـ « الروح العالية »
للانتفاضة التي وقعت في روما ، ودعا في رائعة
اخرى له الى الوحدة والى نبذ الخلاف والشقاق
مختارا لها اسما معبرا هو « وطني ايطاليا »
(Italia mia) التي لم تفقد قيمتها شكلا
ومضمونا حتى اليوم . وكتابه « افريقيا » ملىء
بالروح الوطنية السامية . وقد انتقد بترايك
مسارء الكنيسة بشدة في عدد من نتاجاته المهمة ،
خاصة في قصائده التي اسمها « رسائل بدون
عناوين » . واخيرا يجب ان نشير الى ان حب
بترايك لفتاة احلامه لاورا تحول ايضا الى مصدر
وحي للعديد من نتاجاته الادبية ، الا انه ظل ، على
العكس من دانتي ، يحوم في قصائده وكتاباتة حول

(١٣) ألف بترايك عددا كبيرا جدا من المؤلفات ، ضاع قسم
غير قليل منها (R. Weiss, Op. Cit., P. 26) .

للكتاب الاقدمين بحيث يمكن التحدث عن مدرسة بتراركية خاصة لم تقتصر على ايطاليا بل امتدت الى ما وراء الالب (١٥) .

لم يستطع بترارك ، بالرغم من كل تطلعاته ، قطع جميع الخيوط التي كانت تربطه بالماضي وقد اعترف بذلك شخصيا . من الطبيعي ، اذن ، ان ظهر بعض التناقض في آرائه ومواقفه شأنه في ذلك شأن دانتي . فبعد يأسه من تحقيق الوحدة الإيطالية بالاساليب التي كان يؤمن بها وعن طريق القوى التي اعتبرها جذيرة للاضطلاع بتلك المهمة السامية يخطو بترارك خطوة كبيرة الى الوراء عندما يبدأ في اواخر حياته بالنظر الى احياء الامبراطورية الرومانية المقدسة وسيلة لايجاد الحلول لمشاكل بلاده السياسية . كما ان حبه للحياة والانسان غالبا ما كان يصطدم ببقايا افكار التقشف والرهينة التي ترعرع في احضانها . وقد ظهر هذا التناقض بجللاء في مؤلف له عن الحياة دونه على شكل حوار مع احد الزعماء الروحانيين الاوائل للمسيحية .

قضى بترارك الفترة الاخيرة من عمره في عزلة تامة عن العالم الخارجي ، ولكن لم ينفصل حتى

R. Weiss, Op. Cit., PP. 27-29, 34, 86, (١٥)
98-112; "The Renaissance and the Reformation 1300-1600", P. 9.

مشاكل هذه الدنيا بشكل مباشر . ومع ان بترارك لم يبتعد كليا عن المجاز والاستمارة اذ يحاول ببراعة استغلال المعنى الرفيع لاسم محبوبته (١٤) في تعابير مجازية الا ان اسلوبه ظل مع ذلك قريبا الى سمع وقلب وعقل القارئ في تناسق موسيقي عجيب . ولئن جعل دانتي من فيرجيل مرافقا له في الحياة الثانية فان بترارك استعان كذلك بهذا الشاعر الوثني نفسه ولكن باسلوب قريب من هذه الحياة . فانه استعار ، مثلا ، من احد مؤلفات فيرجيل قضايا مميثة للتعبير بها عن آثار نابولي في بعض من قصائده . وقد جاءت مثل هذه التعابير المباشرة بمباشرة خطوة سريعة نحو انطلاق اكبر ، ، لاسيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار الفرق الزمني الجزئي بين دانتي وبترارك . من هنا لم يقل تأثير الاخير على اعلام النهضة الطليان وغيرهم من تأثير دانتي خاصة وان معظم انساني عهده اما كانوا من اصدقائه المقربين او من تلاميذه بل ان افكار بترارك انتشرت في خارج ايطاليا بشكل اسرع من افكار معاصريه ومعظم الانسانيين الذين اتوا من بعده ممن بلغ تأثيرهم به حد انهم حاولوا تقليده في كتاباتهم اكثر من تقليدهم

(١٤) اسمها مقتبس من كلمة Lauro التي تعني اوراق او شجرة الغارلي الإيطالية ، ولقد جعل الافريق والرومان اقدما اكليل الفار رمزاً للانتصار والمجد والظفر .



العملية أيضا بولوجه عالم السياسة . فقد وقف الكاتب المبدع بحماس السى جانب المؤسسات الجمهورية الجديدة واضطلع بمسدد من المهام الدبلوماسية الكبيرة . ومع انه لم يقف الى جانب الفئات الاجتماعية الدنيا في مدينته والتي بدأت تتحرك بدورها من اجل ضمان مصالحها ، الا ان نشاطاته تميزت ، مع ذلك ، بطابع ديمقراطي وطني عميق ولا سيما انه استمر في اداء الرسالة التي بداها دانتي وبتبرارك فلعب دورا بارزا في رفع الشعور الوطني بين ابناء جلدته كما ساهم بقوة نتاجاته الادبية في تعزيز مكانة اللغة القومية الايطالية كلفة بحث وتاليف ، خاصة وانه دون بها معظم مؤلفاته .

بلغ بوكاشيو قمة ابداعه الفني في رائعته « ديكاميون » المؤلفة من مائة قصة قصيرة قضى ثلاث سنوات في تأليفها وهو يرويها على لسان سبع شابات وثلاثة شبان امضوا عشرة ايام في فيلا خارج المدينة اثناء انتشار الطاعون في فلورنسا عام ١٣٤٨ كان يروي الواحد منهم قصة واحدة في كل يوم . ومن هنا جاء اسم الكتاب (ديكاميون) الذي يعنى في اللاتينية « مذكرات عشرة ايام » .

تحتوي مجموعة « ديكاميون » على قصص تروي مغامرات بعض التجار في بلدان مختلفة وعلى

انذاك عن التفكير في مصير وطنه وعن مشاكل الناس وغيرها من القضايا الحيوية مما يعطيه مكانة متميزة في بدايات عصر النهضة وفي تأثيراته المباشرة على الانسانيين الاخرين ، منهم الرائد الثالث بوكاشيو الذي كان من اوائل تلاميذه واقرب اصدقائه .

بوكاشيو (١٣١٢ - ١٣٧٥) :

ولد الكاتب الايطالي البارز جيوفاني بوكاشيو في باريس في عائلة فلورنسية امتهنت التجارة . اراد والده ان يجعل منه تاجرا او محاميا ، ولكن لم تكن لدى بوكاشيو رغبة نحو اى من المهنتين . بعد عودته الى ايطاليا بدا نشاطه الادبي في مدينة نابولي التي كانت تجمع انذاك بين بقايا القديم المتمثلة في مظاهر الفروسية وبدايات التحول الجديد المتمثلة في ظهور بعض الانسانيين فيها . تمتع بوكاشيو في نابولي برعاية ملكها كما وقع في حب ابنته غير الشرعية ماريا التي لعبت في حياته ما لعبته كل من باتريس بورتيناري ولاورا في حياة دانتي وبتبرارك الابداعية .

عاد بوكاشيو في ريعان شبابه وادج نشاطه الادبي الى فلورنسا التي استقبلته بحفاوة اذ حققت بوجوازيتها النامية آنذاك الانتصار على الفئسة الارستقراطية الحاكمة فيها فظهر امام الكاتب المبدع مجال ارحب للنشاط الفكري الذي امتد الى الناحية



لقيم لم تعط الإنسان حقه كإدانة خلق مبدع في الحياة؛
فلقد طور بوكاشيو الرأي القائل بأن منزلة الفرد لا
تعتمد على انتمائه العائلي بل تعتمد على ما يأتي من
أعمال وأفعال .

ومن المهم أن نشير أيضا إلى أن بوكاشيو لم
يعد مثل سلفه ذاتي بحاجة إلى تقمص أناس من
الماضي السحيق واختيار أجواء من العالم الآخر
ليعبر عن طريق أولئك وتلك عما كان يجيش في
صدره من نقد لاذع للمظاهر المتفسخة ، بل أنه يبقى
في أجواء الواقع الملموس ويتكلم في « ديكاميرون »
على لسان أبناء الجيل الجديد المنتمين إلى الفئات
الجديدة عما يدور في أعماقهم من تعرض مشروع
لسلبات الواقع الاجتماعي . وقد عبر الكاتب بشكل
غير متقصد كذلك عن أسلوب حياة الطبقة الاجتماعية
الجديدة وبعدها ، مثل الأرستقراطية السابقة ، عن
الأساطير الشعبية . فعندما كان هؤلاء العشرة
حسب تصور الكاتب - يقضون حياتهم ويدراون
الخطر عن أنفسهم بهذا الأسلوب كان الطاعون يلتهم
حياة المئات من أبناء الفئات الفقيرة في المدينة .

وبالرغم من كل ذلك فقد بدأ بوكاشيو يعاني ،
مثل سلفه ذاتي ومعاصره بتراكم ، أزمة نفسية
حادة في خضم التناقضات الاجتماعية التي كانت
تعيشها المدن الإيطالية والتي انمكست آثارها بقوة

أخرى مقتبسة بأسلوب رفيع من الأساطير والقصص
الشعبية المتداولة ومن الحكايات الشرقية المعبرة (١٦)
ولكن الأحداث اليومية لحياة المجتمع تحتل المكانة
الأولى في المضمون العام لقصص « ديكاميرون » التي
أصبح أبطالها ، بحكم ذلك ، من أبناء المجتمع
الإيطالي بدءا بالملوك والزملاء وانتهاء بالخدم
وبسطاء الفلاحين . وقد صب المؤلف جميع إمكاناته
في السخرية في هذا الجانب من قصصه ، فيشير
الضحك بذكاء مقصود في أعماق القارئ على أعمال
وتصرفات الرهبان والوعاظ والمبشرين والتساوسة
الكاثوليك وغيرهم من رجال الكليروس الذين
يصورهم بوكاشيو كطفيليين متخنين ومخادعين
منغمسين في الفسق والفجور وكاناس ضليعين في
التفاني والرياء . وفي الواقع لم يمس بوكاشيو
المسائل الدينية ، إلا أن خطوته الجريئة في كشف
رجال الكنيسة لم تخل من أثر مهم في خلق
الاتجاهات المقبلة لمعالجة الجوانب السلبية في
التعاليم الكاثوليكية المتدعة بنفس الجراءة . ثم أن
قصصه مليئة بالأمثلة الحية عن انتصار القيم
الحياتية الرنيعة المتوافقة مع عقل الإنسان
ومصالحه في العصر الجديد الذي لم يبق فيه مكان

(١٦) لا يستبعد أبدا احتمال نثر بوكاشيو بالف ليلة وليلة التي
ترجمت إلى اللاتينية أيام الصليبيين .



في مجال النشاط الفكري . وقد وقع اخيرا تحت تأثير احد رجال الكنيسة فيدا يدي الندم على ما ظهر في نتاجاته من تعلق بحياة الدنيا ؛ ولو لا تدخل بترارك الذي كان بوكاشيو يعتبره مرشدا له ، لتخلى نهائيا عن كل نشاط ادبي . ومع ذلك كرس بوكاشيو اواخر حياته للعمل العلمي الصرف كالبحث عن المخطوطات القديمة والتأليف في مجال التاريخ كما اسس في فلورنسا كرسيًا لشرح مؤلفات دانتي وعلق بنفسه على سبع عشرة انشودة من اناشيد « الكوميديا الالهية » وهو اول من سجل تاريخ حياة مؤلفها في كتاب خاص .

سيبقى اسم بوكاشيو خالدا ولا سيما ان قصة « ديكاميون » قد جلبت له سمعة عالمية وهي تمثل - عند مقارنتها بنتاجات دانتي وبترارك - مرحلة اعلى في مسار التطور الادبي الايطالي والاوروبي . فقد ظل هذا الادب مدينا ، في تطوره اللاحق ، لبوكاشيو طيلة عصر النهضة وحتى بعدها ، اكثر من اي ابداع فردي آخر (١٧) .

في ختام حديثنا عن الرواد الثلاثة علينا ان نؤكد مرة اخرى على انه بالرغم من جميع نواحي الضعف الطبيعية في نتاجاتهم وآرائهم فان دورهم في

R. Weiss, Op. Cit., P. 33.

(١٧)

٩٠

النهضة يبقى بارزا ومتميزا اذ هم الذين وضعوا اللبنة الاولى التي اعتمد عليها التطور اللاحق لانكارها التي تمتعت بعدهم وبفضلهم اكثر من السابق ؛ فيكفي دانتي وبترارك وبوكاشيو فخرا انهم وضعوا « بداية ثورة في التأليف » (١٨) مما انعكس في جميع الاتجاهات والمسارات الفكرية الجديدة . وربما كان آرازمس من ابرز الانسانيين الذين حافظوا الى حد كبير على تقاليد هؤلاء الرواد في مرحلة بلغت النهضة فيها اوج نضجها .

الانساني البارز آرازمس

الروتدامي (١٤٦٦ ء - ١٥٢٦)

يحتل آرازمس الروتدامي مكانة خاصة في تاريخ النهضة الاوروبية لا لسعة اطلاعه فحسب بل كذلك لانه ترك آثارا مباشرة على الحركة الفكرية في عدد من الاقطار الاوروبية . فقد ولد في روتدام بهولندا حيث بدأت حياته العملية والدراسية بين جدران كنائسها ، ثم انتقل الى باريس لتيسل الدكتوراه في العلوم الدينية من جامعتها وشغل هناك ايضا مناصب عميد كلية دي فرانس الرفيع ، وعمل ما يربو على ستة اعوام محاضرا في جامعات

D. Hay, Op. Cit., P. 80.

(١٨)

في عصر النهضة ، فقد ترجم الى عدد من اللغات الأوروبية وانتشر على نطاق واسع .

تمسك ارازمس في ارائه بالديانة المسيحية فاكد على قيمها الاخلاقية والمعنوية التي اعتبرها قمة ما توصل اليها الفكر الانساني في مسار تطوره ونظر من هذا المنطلق الى العلوم والثقافات القديمة كمقدمة للانتقال الى مرحلة اعلى ارتبطت بظهور المسيحية التي اعتبر تعاليمها ارفع من أن تمتد اليها يد الاصلاح لذا وقف ضد الحركة اللوثرية وناقش اراء دعاة الاصلاح من امثال الانساني الالماني فون هوتن ولوثر وقد نشر كتابا اسماه « حرية الارادة » تهجم فيه بشدة على أفكار مارتن لوثر ودافع من خلاله عن حرية ارادة الفرد .

ومع ذلك فقد تحولت افكار آرازمس ، رغما عنه ، الى قوة دفع بارزة ضمن مقومات حركة الاصلاح الديني . فانه ، كما ذكرنا ، ترجم الانجيل والكتب الدينية القديمة بشكل دقيق ومفهوم مما ادى الى كشف مدى انحراف كبار رجال الدين وابتعادهم عن المبادئ الاصلية للمسيحية التي استهدف هو من توضيحها محاربة الشرور الاجتماعية في عصره . فآشار في مؤلفاته الى بعض الاضرار المعنوية الناجمة عن التملك الفردي وعن الفوارق الاجتماعية الصارخة والفقر . وذهب الى

انكلترا ، ولا سيما في كمبرج ، وانتقل نشاطه العلمي الجم الى كل من المانيا وايطاليا وسويسرا الى أن وافته الاجل بمدينة بازل في سويسرا .

طبقت شهرة ارازمس كلفوي واديب ومفكر فذ على جميع الاوساط العلمية والثقافية الأوروبية بسرعة . كان ضليعا في معرفة اللغتين اللاتينية واليونانية والى عدد من الكتب حول دراستهما ، الا انه اولى اللاتينية اهتماما اكبر فقد كان يتكلم ويؤلف بها .

ان اجل خدمة قدمها ارازمس هي ما قام به من تسييت للنصوص الاصلية للعهد الجديد ولعدد من الكتب الكنسية القديمة مع ترجمتها الى اللاتينية ترجمة دقيقة وواضحة . وقد أعطى ذلك ، مع تعليقات وشروحات ارازمس نفسه ، امكانية فهم اعماق لمضمون الكتاب المقدس . ومن اعماله الجلية ايضا انه قام بجمع وشرح مختارات من حكم وامثال الكتاب الاقدمين فاسهم بذلك الى حد كبير في نشر الافكار الانسانية بين اوساط ثقافية اوروبية مختلفة اذ يعتبر مؤلفه « كتاب الامثال » الذي انتهى منه في العام ١٥٠٠ من اشهر نتاجاته وهو عبارة عن مجموعة من حكم وامثال وطرائف الكتاب الاقدمين الحق بها تعليقات عميقة في مضمونها واهدافها حولت الكتاب الى حافظ مهم لرواج الفكر الانساني

العقل في سبيل القضاء على التناقضات والخلافات والحروب الداخلية وإقامة سلم دائم عن طريق إيجاد حلول عادلة للمشاكل الدولية . وقد ضمن آراءه السياسية هذه كتابه « تربية الأمير المسيحي » . وفي كتابه هذا أكد أرازمس على ضرورة أن يبذل الأمير قصارى جهده لكسب حب الشعب بأن يكون « شفوفاً ، حليماً وأنياساً » و « يختار وزراءه من بين أناس يتسمون بالصفات نفسها » ويحاول « أن يعرف مملكته جيداً » (١١) .

أولى أرازمس من نفس المنطلق تقريباً ، مسألة التعليم جانباً كبيراً من اهتمامه ، فقد نشر بشأنها عدداً من الآراء القيمة كتنديده مثلاً بأسلوب التعليم الإقطاعي وكشفه للجوانب الشكلية والجمود الصارخ فيه واحتجاجه ضد أساليب الضرب والزجر المتبعة مع الطلاب ومطالبته بجعل التعليم سهلاً ومفهوماً ومتوافقاً مع ذوق الطلبة بحيث ينمي فيهم روح الإبداع الذاتي .

هكذا نرى شمولاً واضحاً في آراء أرازمس واتجاهاته مما جعله في نظر العديد من المؤرخين

"Action and Conviction in Early Modern Europe", editors J. K. Rabb and J. E. Seigel, Princeton, 1969, pp. 20-21. (١١)

مدى أبعد من ذلك بكثير عندما انتقد بأسلوب ساخر للغاية استهتار القساوسة وانغماسهم في ملذات الحياة مختفين تحت واجهات شتى . ويعتبر كتابه اللاذع « في مديح الغباوة » أو « تمجيد السفاهة » نموذجاً صارخاً لانتقادات أرازمس للقيم الدينية والسياسية السلبية في عصره إذ يشير الضحك بقوة وبذكاء خارق في أصمق القارىء على تصرفات المنافقين والدجالين والجهلة ويكشف فيه نواقص الكنيسة ورجال الدين بأسلوب أقوى من معظم معاصريه فساعد بذلك على انضاج شروط انفجار حركة الإصلاح الديني ، ولا سيما أن مؤلفاته كانت تترجم بسرعة إلى اللغات الأخرى وكانت تلقى رواجاً كبيراً بين الناس بحيث بلغ مجموع ما طبع من بعض كتبه ، وبشكل خاص كتابه « في مديح الغباوة » عشرات الألوف من النسخ وهي رقم قياسي نادر بالنسبة لعصره .

كان أرازمس الروترdami هادئاً في طبيعته ، ميالاً إلى السلم والتسامح لذا لم يكن يحبذ الانقلابات والتغييرات المفاجئة ، إنما كان يميل إلى استخدام العقل والتعليم لدفع الناس إلى الطريق السوي . فقد اعتبر عقل الإنسان أمياً شيئاً في الوجود لأبد من تحويله إلى الأساس الذي يجب أن يستند إليه كل حكم موفق . فعلى الحاكم الناجح أن يلجأ إلى

ظهرت أسطورة « العصر الذهبي » الخالي من الفوارق والاستغلال .

ومن جانب آخر حاول العديد من المفكرين سياغة نفس الطموحات في اطر فكرية متباينة . فان فلاطون بالرغم من مثاليته ودفاعه عن « مجتمع السيد » كان يحلم باقامة نظام مثالي يتولى فيه الفلاسفة مقاليد الحكم الذي عليه اشاعة نوع من التملك الجماعي وان يأخذ على عاتقه مهمة تربية الاطفال وتعليم الجيل الناشئ . وفي القرن الثاني قبل الميلاد ابهر الكاتب الاغريقي يامبول في قصة خيالية الى جزيرة ما تقع الى الجنوب من شبه الجزيرة العربية تقطنها عشرة سعيدة لا يعرف ابناؤها الاستغلال والفروق فرأى الكاتب فيها النموذج المثالي للحياة . وفي العصر الوسيط ، وحتى بعد ذلك ، بدأ الناس يحلمون باحياء المثل المسيحية الاولى حول المساواة والاخوة .

كان من الطبيعي ان يتخذ مثل هذا التوجه الفكري طابعا اكثر شمولا وأعمق تعبيرا مع ظهور العلاقات الرأسمالية وازدياد الفروق الاجتماعية وتفاقم التذمر بين الناس . جاء في بحث انكليزي يعود الى الربع الاخير من القرن السادس عشر :

« من الذي رأى في أي عهد كان مثل هذا العدد من الناس المتذمرين والمستائين من أوضاعهم

» ابرز وجهه رفته الحركة الانسانية على الاطلاق « (٢٠) ، بل منحها بعضهم لقب « امير العلماء » (٢١) . فلا غرو ان نال ارازمس اعجاب الجميع ، ومنهم بعض ملوك اوروبا الذين استعانوا بخدماته ، كما وجد لغة مشتركة مع معظم انساني عصره الذين تحولوا الى اصدقاء مقربين اليه ، وكان توماس مور ، رائد الفكر الاشتراكي المثالي ، واحدا منهم .

الاشتراكيون المثاليون

منذ ان ظهرت الفوارق والاختلافات بين الفئات الاجتماعية ومنذ ان ظهر الاستغلال وتسلبت القوى على الضعيف بدأت الجماعات المقلوبة على امرها تبحث عن مخارج واساليب من شأنها التخفيف من الامها . ولم تقتصر توسلات هذه الفئات على الانفجار والتمرد ضد الواقع المجحف بل انها بدأت ايضا تسبح في عالم الخيال من اجل غد افضل مما عبر عن ذاته واضحا في الادب الشعبي لمختلف الشعوب . ففي عهد الاغريق والرومان القدماء

(٢٠) "Renaissance and Reformation 1300-1648", ed. by G.R. Elton, second edition, New York-London, 1968, P. 59.

(٢١) R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., P. 59.

اصحابه ، بطابع خيالي بعيد المنال . فان توماس مور يتحدث في ابرز مؤلف له عن بلاد سعيدة في جزيرة « يوتوبيا » البعيدة الخالية ، بفضل نظامها ، عن المشاكل التي تعاني منها المجتمعات الاخرى . ففي « يوتوبيا » لا يوجد مكان للملك الفردي والاستغلال ، والمخازن عمومية تزود كل فرد بما يحتاج مجانا ولكل دار بابان مفتوحتان امام الكل باستمرار ، والعمل الجسماني ملزم بالنسبة لجميع المواطنين دون أن تتجاوز مدته ست ساعات في اليوم . وتمتع المرأة اليوتوبية بالمساواة التامة في الحقوق والواجبات ، وهي لا تهتم الا بالجمال الطبيعي ، فلا تستخدم مستحضرات التجميل لان رجال الجزيرة لا يجذونها ولان تكامل الخلق يأتي في نظرهم قبل جمال الخلقة . وفي مثل هذا الجو من العلاقات يرتفع وعي سكان « يوتوبيا » الى درجة يحتقرون الذهب فيصنعون منه السلاسل للعبيد والقعدات للاطفال والشارات للمجرمين .

اما الفيلسوف والسياسي والشاعر والعالم الايطالي كامبانيلا فقد ذهب في مؤلفه « مدينة

ومثل هذا العدد القليل من القانمين بها ، ومثل هذا العدد الكبير من الراغبين في التغيير والتجديد ، او هل سمع شخص ما بمثل هذا العدد من انواع المصلحين ، او بتعبير اصح من مخربي النظام الطبقي والدولة ، ويمثل هذا العدد الهائل من ناقدي الملوك واعمالهم ويمثل هذا العدد القليل من الموالين لهم ؟ » .

ليس غريبا ان اتخذت افكار المساواة وطموحات العدالة الاجتماعية في ظل مثل هذه الظروف بعدا جديدا وبارزا بحيث ظهر في عصر النهضة اتجاه اشتراكي مثالي (٢٢) واضحة المعالم ، تبناه عدد من الانسانيين البارزين المنتمين الى اقطار اوربية مختلفة ، يعتبر توماس مور الانكليزي رائدا لهم وتومازو (توماس) كامبانيلا الايطالي ممثلا بارزا للطموحات الاشتراكية المثالية الاكثر راديكالية والتي بدأت تعبر عن نفسها بوضوح منذ ذلك العصر ايضا .

عالج الاشتراكيون المثاليون مشاكل مجتمعاتهم بأسلوب جديد اختلف عن جميع الاساليب المعروفة الاخرى واسم ، بالرغم من نبيل دوافع واهداف

(٢٢) نترجم هنا للخطوط الاساسية لهذا الموضوع الذي يستحق تخصيص بحث مستقل لدراسته .

يكن مجرد صدفة ان اختار توماس مور لمؤلفه ذات الصيت اسم « يوتوبيا » التي تعني في اللاتينية (المكان الذي لا وجود له) . ومع ان افكار هؤلاء قد تركزت آثارها على الاتجاهات الاشتراكية اللاحقة الا انها ظلت محدودة التأثير في عصر النهضة ، محصورة في نطاق ضيق ، ولا سيما اذا ما قيس ، مثلا ، بالاطار الواسع والمتنوع الذي ظهرت فيه نتاجات الفنانين من رسامين ونحاتين وغيرهم .

الرسامون والنحاتون

للرسم والنحت جذور عميقة في حضارة الانسان ، وهما يتطوران عادة بسرعة أكبر نسبيا من غيرهما حالما يتوفر المناخ الملائم لمثل ذلك التطور . وهذا ما حدث في عصر النهضة بالذات عندما انطلق الفن من عقالة بسرعة مدهشة لم يشاهده في ذلك أي حقن من حقول المعرفة الانسانية الاخرى . فقد كان لا بد للفن ان يجرف امامه حاجزا هائلا حصر الابداع في اطر ضيقة للغاية جعلت الانسان يفقد احساسه بجمال الطبيعة . فلوحات العصر الوسيط كانت قائمة ، مليئة بالتشاؤم ، بل « تنفر منها النفس » حسب تيمبر ر . م . سكوب . من هنا فقد اصبح لزاما على الفنانين الجدد قطع درب شاذ حتى يكون في وسعهم تحويل الانسان «الصفير

الشمس » الى مدى ابعد من سلفه توماس مور (٢٢٢) . فالناس في مدينته الفاضلة « لا يخدمون الاشياء بل تخدمهم الاشياء » ، والكل يعملون اربع ساعات في اليوم اذ لا مجال « للعاملين اللثام والطفيليين » . ويعيش سكان المدينة في بيوت عامة وياكلون نسي المطاعم معا . وفي مدينة الشمس تتعهد الدولة تربية الاطفال وتعليمهم .

ظهر في عصر النهضة اشتراكيون مثاليون آخرون يحملون افكارا مشابهة لافكار مور وكامباتيلا او قربية منها ، مثل سيرانو الفرنسي وتوماس مونزير الالماني وغيرهما . وقد كان الاخير الوحيد بين الاشتراكيين المثاليين الذي ربط بين النظرية والتطبيق بان بشر بارائه بين الاوساط المسحوق فتحول الى واحد من أبرز قادة الحرب الفلاحية الالمانية المعروفة (١٥٢٤ - ١٥٢٥) .

لم تستند افكار الاشتراكيين المثاليين الى ارض الواقع ، بل كانت تدور في عالم الخيال . ولم

(٢٢٢) في العديد من افكاره تسمى كامباتيلا حدود فلسفة عصر النهضة (للتفصيل راجع :

E. Garin, Italian Humanism. Philosophy and Civic Life in the Renaissance, Oxford, 1965, PP. 215-220).

منهم من بين صفوف تلك الاوساط ليصعدوا ولكن دون ان يفقدوا كل ما كان يربطهم بمانشيهم من جذور . أما الافغنياء فانهم بدأوا يميلون ، بتأثير مباشر من زخم القيم الجديدة ، الى تخليد انفسهم في هذه الحياة من خلال الفن فقربوا الرسامين والنحاتين من انفسهم واغدقوا عليهم بسخاء .

تمثل نتاجات عصر النهضة الفنية اليوم مكانة جد بارزة ضمن ائمن ما في التراث الانساني . وقد عبر رسامو ونحاتو ذلك العصر عن خصائص النهضة وجسدها بشكل واضح يمكن الوقوف عليه من خلال عرضنا لحياة واعمال ثلاثة من ابرزهم ، هم ليوناردو دافينشي وميخائيل انجيلو وروفائيل سانتي الذين ظهروا بدورهم في ايطاليا لتحتمل بفضلهم ونتيجة جهودهم ، مكانة خاصة في هذا المجال كذلك .

ليوناردو دافينشي (١٤٥٢ - ١٥١٩)

قلما عرف التاريخ عبقريا مسيطرًا على زمام حقول شتى فنية وعلمية وفكرية وأدبية مثل ليوناردو الذي يعتبر عن جدارة واحدا من أبرز البارزين من بين المباقر الذين ابدعوا في عصر النهضة . ولد ليوناردو في بلدة فينشي من أعمال فلورنسا التي تكونت فيها امكاناته الفنية وبدأت فيها أيضا نشاطاته الإبداعية المبكرة .

والدليل في الفن القوطي « الى « عملاق مرفوع الرأس » (٢٤) « يغزو السماء نفسها » (٢٥) وليحولوا مأساة المسيح من شبح مخيف الى درس في الحياة من اجل الفكر والمبدأ . فبفضل ريشة عباقررة النهضة اسبغ الموت على المسيح المصلوب حلة المجد ليختفي وراءها ما عاناه من عذابات والام ، انه « فوق الصليب رجل في شرح الشباب » وفي طفولته البريئة ، كأي طفولة ، يحوم حول « العذراء الام » لتوحى ملامحها بالعلاقات الانسانية الاصيلة وما يدور في قلب كل ام تجاه رضيعها .

توجد عوامل اخرى اسرعت من الانطلاقة الكبرى للفن في عصر النهضة . فقد اشتركت جميع الشعوب الاوروبية تقريبا في اغناء هذا الجانب المهم من الحياة الثقافية . وينطبق نفس القول على الفئات الاجتماعية المختلفة للشعوب تلك . فان حياة بسطاء الناس بتناقضاتها الحادة بين عذابات الاستغلال وتغاؤل الحياة وبساطة الابداع مع قوته في مجالى الفولكلور والانتاج الحرفي قد تحولت الى مصدر وحي والهام للفنانين الذين خرج العديد

M. L. Bush, Op. Cit., P. 153. (٢٤)

R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., P. 52. (٢٥)

الكمال . بحيث تعتبر القلة الباقية من لوحاته من اندر واثمن ما أنتج في هذا الميدان وهي تعبر عن الثروة الفنية الكامنة في الطبيعة والحياة نفسها بشكل متفائل لم يعتمد عنه الرسام المبقرى حتى في لوحاته التي كرسها للشخص والاحداث الدينية على الاقل لان المرء لا يلمس فيها الرهبة القائمة المفتعلة التي تتميز بها نتاجات العديد من الرسامين الاخرين . ففي لوحته المعروفة « المذراء والزهرة » جسد ليوناردو بشكل مبدع سعادة ام شابة تلعب مع طفلها البكر . وفي لوحته الاخرى المشهورة جدا « موناليزا » او « جوكوندا » التي رسمها في حوالي العام ١٥٠٣ (٦٦) اعطى صاحبة الصورة الرائعة الجمال بعدا فنيا خاصا من خلال نظرتها البعيدة المعبرة وابتسامتها الغامضة التي اصبحت ، ولم تزال ، مدار نقاش العديد من الرسامين والمختصين في فن الرسم وغيرهم .

هكذا جعلت ابداعات ليوناردو دافينشي النابعة من اطلاعه الواسع مع تعمقه الخارق في التعبير عن نفسيات شخص لوحاته ، وتمكنه العجيب في الجمع بين الالوان فيما بينها ومع مشهون اللوحة ، اضافة الى الحركة اللبوسة

(٦٦) تعتبر من الفن موجودات متحف اللوفر بباريس ان لم تكن امنها فاطية .

امن ليوناردو دافينشي ايمانا مطلقا ذا مسحة فلسفية بوجود علاقة ثابتة بين الفن والعلم ولم يحد عن هذا الرأي حتى الاخير . فهو كان يرى انه لا بد للابداع الحقيقي في فن الرسم ان يعتمد على التحديد الدقيق لابعاد الصورة بشكل متناسب مما يتطلب - كما كان يؤكد - الامام التام بالرياضيات . واذا اراد الرسام الاصيل التعبير عن تفاصيل الانسان بدقة ، فان عليه ان يتف على دقائق جسمه وهذا يفرض الاما كافيا بالاناتوميا التي اولها شخصا اهتماما خاصا . واهرا حدد ليوناردو العلاقة بين العلم والرسم من خلال الطبيعة نفسها فهي - كما كان يكرر باستمرار - تشكل المختبر الاساس لجميع العلوم كما تشكل ، في الوقت نفسه ، الحقل الرئيس لابداع الرسامين الذين طالبهم بالمعرفة الحقيقية وبالاطلاع الواسع حرصا منهم على اصالة ابداعاتهم الفنية . فيكون ليوناردو بذلك رساما ونظريا في فن الرسم ، وقد طبع له كتاب بعد وفاته ضم ملاحظاته العميقة حول هذا الموضوع .

وضع ليوناردو دافينشي الرسم في مرتبة اعلى من جميع الفنون الاخرى ذلك لانه يستطيع « التعبير عن كل ما يقع تحت النظر » وحتى انه يطلق اسم العلم عليه فيذكره في كتاباته بهذه الصيغة احيانا . وقد سيطر بنفسه على زمام هذا الفن الى حد

ايضا على التجربة وعلى ملاحظة دقيقة لعملية تحليق الطيور المختلفة فوضع عن الطيران ما لا يقل عن مائة نظرية وتوصل فعلا الى صنع الات تطير بواسطة اليد او الزنبرك واستنتج - وهذا مهم جدا بالقياس الى زمانه - ان نجاح الآلة الطائرة انما يعتمد على وجود محرك خاص بداخلها . والى جانب ذلك توجد بين مخطوطاته صور لمظلات (البراشوت) والطائرات العمودية (الهليكوبتر) ، وقد اراد من الاولى ضمان هبوط الانسان من المناطق المرتفعة الى الارض برفق .

وضع ليوناردو دافينشي ايضا تصاميم مختلفة لعدد من المكائن الجديدة منها آلة للنسج واخرى للندف وثلاثة لصقل الزجاج وآلة طباعة وآلة خاصة بالنجارة وماكنة لحفر القنوات ومصاهر للمعادن وغيرها . وهو اول من حاول تحديد قوة الضوء وعلاقتها بالبعد المكاني على اساس التجربة ويمكن اعتبار مقارنته بين انتشار الامواج فوق سطح الماء من جهة وانتشار الصوت والضوء من جهة اخرى بمثابة احدي الاشارات الاولي لنظرية التموج الضوئي .

اهتم ليوناردو طوال حياته كرسام وعالم بالاناثوميا ، وهو لم يقتصر على تشريح الانسان بل قام في الوقت نفسه بتشريح اجسام حيوانات

بشكل غريب في رسومه ، جعلت منه رائدا للمرحلة الجديدة في تطور الفن الايطالي وبالتالي الاوروبي .

لا يمكن فصل ليوناردو المفكر وليوناردو العالم عن ليوناردو الرسام ، ولا يجوز فصل هذا او ذلك عن ليوناردو الانسان . فهو كان يؤلف في ذاته شخصية متكاملة وعبقريّة متشعبة تفاعلت فروعها فيما بينها لتعطي نتاجاته المختلفة قوة فائقة فريدة . فانه كان عالما عبقريا اغنى تقريبا جميع حقول المعرفة بملاحظاته الدقيقة وتوقعاته العميقة . فقد درس وبحث في الرياضيات والنبات والميكانيك والفيزياء والفلك والجيولوجيا والاناثوميا وفسولوجيا الانسان والحيوان وفي الفنون العسكرية . واعتمد في مجالات كثيرة من هذه العلوم على تجارب ودراسات من سبقوه مع استنتاجاته الشخصية . ففي الميكانيك ، مثلا ، اعتمد على مكتسبات اسلافه وعلى تجاربه الذاتية الفنية كمهندس زاول المهنة فاهتم بقضايا كثيرة من قبيل الفعل ورد الفعل والتوازن وسقوط الاجسام ومقاومة المواد المختلفة وغيرها ووضع بالاستناد الى كل ذلك مشاريع مختلفة « للمدينة المثالية » وطور فن بناء القباب وبدأ بوضع خرائط ومخططات بهدف تطوير الميكانيك المستخدم في البناء . وكانت محاولاته لصنع اجهزة طائرة جديدة في بابها وقد اعتمد فيها



تشبه الديابات والمصفحات كما حاول تطویر
المفرقات والمدافع ووضعت خططا ناجحة لصنع
ملابس القمص والجسور المتحركة وغيرها كوسيلة
ذود عن الحرية ، فقد جاء في مذكراته قوله : « اني
اخترت من وسائل الهجوم والدفاع ما نواجه به
باس الطغاة الظالمين ، لكي نحافظ على النعمة
الكبرى التي وهبنا اياها الطبيعة الا وهي
الحرية » (٢٧) . ان ليوناردو كان نصيرا مخلصا
للسلم (٢٨) فوقف ضد الحرب بقناعة مفكر واصفا
اياها كأسوأ اشكال الجنون المتوحش ، وقد اصاب
كبد الحقيقة في ذلك دون ان يعلم ان بعضا من
نتائجها النادرة ستصبح في يوم من الايام احدى
الشحايا الشنيعة التي لا تعوض لحروب نابليون
وهتلر ، بل وحتى للحروب التي وقعت في ايامه .
فقد كلفه ملك ميلان باقامة نصب تذكاري لعميد
اسرته سفورزا ، فأولى ليوناردو الطلب جانبا كبيرا
من اهتمامه مما يبدو واضحا من المخططات العديدة
التي وضعها لتنفيذ المشروع الذي كان من المقرر

(٢٧) مقتبس من : الدكتور جلال شوقي ، عبقرية ليوناردو

دافينشي في الهندسة ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٢٧٣ .

(٢٨) باقتراح من مجلس السلم العالمي احتفلت مختلف الاوساط
الفكرية والثقافية العالمية في نيسان ١٩٥٢ بمناسبة مرور
خمسائة عام على ميلاد الفنان المبدع والعالم الكبير
ليوناردو دافينشي .

مختلفة وان المخططات والصور الاناتومية التي
تركها لا تفوق الى حد كبير نتائج عصره في هذا
المجال نحسب بل انها تفوق ايضا شبيهاها في
المهود التالية . وهنا توصل العالم الفنان الى عدد
من النتائج الباهرة ايضا ، فقد تمكن من فصل راس
الشفدة وقلبها عن جسمها وهو اول من حدد
بشكل صحيح عدد فقرات عظم العنق لسدى
الانسان . وعلى ما يبدو انه كان يفكر في تطور
الانسان من الاشكال البدائية الى ان بلغ التكامل
لان كتابة وصف توضيحي مقارن بين الانسان
والحيوانات القريبة الشبه به كانت ضمن مشاريعه
العلمية .

اما في مجال الفلك فقد وقف ليوناردو بثبات
ضد الاراء التي كانت تجعل من الارض مركزا ثابتا
للكون وهو اول من حدد بشكل صحيح اللون
الرمادي للقمر ، كما توقع حدوث تغييرات على
ارضاع اليابسة والمياه المحيطة بالارض في الماضي
وذلك بالاستناد الى استنتاج استنبطه من وجود
بقايا الحيوانات البحرية في اماكن تبعد كثيرا عن
سواحل البحار والمحيطات .

ويجدر بنا ان نشير اخيرا الى ان ليوناردو
دافينشي قد اسهم ايضا في تطوير اجهزة الحرب
فمن بين مخططاته وخراطة ما يشير الى آليات

بخط معكوس ، أي من اليمين الى اليسار ، ومن الطريف انه كان يجيد استعمال كلتا يديه في الكتابة والرسم دون صعوبة . ولكن لم يصلنا ، بمزيد الأسف ، أي من مؤلفاته الكاملة ، إلا انه توجد الآن ، ولحسن الحظ ، حوالي سبعة الاف صفحة (٢٠) متفرقة من مخطوطاته في عدد من المتاحف الأوروبية (في لندن وباريس وميلان وغيرها) من شأنها اعطاء فكرة واضحة عن عظمة وعمق هذا الفنان العالم . ومما يجدر بالذكر هنا ان في مذكرات ليوناردو من الاشارات ما يدل على انه كان مطلعا على مؤلفات عدد من العلماء المسلمين منهم الرازي وابن سينا .

بوشر بطبع مؤلفات ليوناردو منذ النصف الثاني من القرن الماضي ولم ينجز حتى الثلاثينيات من هذا القرن وهذا يفسر لنا لماذا كان تأثيره على التطور العلمي محدودا مما ترك أثرا سلبيا على سرعة ذلك التطور لان العديد من الاختراعات التي توصل اليها العلماء في القرون التالية كان ليوناردو قد اكتشفها او اقترب من اكتشافها في عصره . فعلى سبيل المثال لا الحصر ان ليوناردو توصل الى تحديد بعض الظواهر القمرية قبل غاليليو بحوالي مائة عام ، وان بعض المخترعين الامريكان توصلوا

(٢٠) ف . ي . روتنبورغ ، المرجع السابق ، ص ٧ .

ان يبلغ ارتفاع حصانه فقط اكثر من سبعة امتار . وقد صب ليوناردو التمثال من الصلصال فجاء النموذج تحفة نادرة عرض في احدى ساحات المدينة الى ان يتم صب التمثال الاصلي من البرونز . الا ان هجوم فرنسا على ميلان والحاجة الملحة للبرونز لصنع الاسلحة قد حالا دون تنفيذ المشروع . والانكى من ذلك هو ان الجند الفرنسيين بعد دخولهم ميلان اتخذوا من نموذج النصب هدفا للرمائية اثناء تدريباتهم (٢١) فانوا على عمل فني رائع امام اعين صاحبه الذي لم يتحمل وقع الصدمة فانقل الى البندقية ومنها الى فلورنسا .

سجل ليوناردو دافينشي جميع ملاحظاته واستنتاجاته العلمية بقلته القومية وعارض بشدة - كابن بار لشعبه وعصره - استخدام اللاتينية . ومن اقواله الرائعة بهذا الصدد : « لدي في لغتي من الكلمات الكثيرة ما يجعلني ان اشكو من انعدام مفاهيم ملائمة للاشياء اكثر من ان اشكو من انعدام الكلمات التي استطيع التعبير بواسطتها عن مضامين افكاري » . ومن عاداته انه كان يحمل دائما معه دفترا خاصا لتسجيل ملاحظاته التي كان يرتبها فيما بعد حسب المواضيع وتسلسلها وكان يدونها

M. L. Bush, Op. Cit., P. 163.

مِخَائِيلُ أَنْجِيلُو (١٤٧٥ - ١٥٦٤) :

مِخَائِيلُ أَنْجِيلُو (مِيكَلانجيلو Michelangelo) نحات ورسام ومعماري وشاعر إيطالي معروف ، درس وترعرع وتعلم الرسم والنحت في فلورنسا . عاش أنجيلو حوالي ٩٠ عاما امتد من بداية الربع الأخير للقرن الخامس عشر وشمل أكثر من كل النصف الأول من القرن السادس عشر ؛ أي أنه عاصر أهم مراحل الثورة الثقافية الأوروبية الحديثة التي تحولت بلاده إلى أبرز مركز لاشعاعاتها النيرة .

جعل ميخائيل أنجيلو من الإنسان الموضوع الرئيس لنتاجه الفني . فقد ركز كل اهتمامه منذ خطواته الإبداعية الأولى على «جسم الإنسان الرائع» حسب تعبيره ، فكان يجسده في أعماله عاريا كما ولدته أمه ، يعبر جسده عن القوة والعزيمة والشباب ووجهه عن الزهو والسمو الإنسانيين . وهو أراد بذلك الخروج على قيم العصر الوسيط وتزمت الكنيسة والتأكيد على حياة الدنيا والإشادة بتحرر المفكرين القدامى وعلى رأسهم النحاتون الذين أطلع الناس لأول مرة في عبيده على تماثيلهم الرائعة المكتشفة من قبيل «أبولو» و «أفروديت» وغيرهما .

هكذا خرج ميخائيل أنجيلو في صنع تماثيله على تصورات الكنيسة الكاثوليكية وأفكارها الخيالية

إلى صنع أول آلة طباعة (٢١) يعد ان خطط ليوناردو لصنعها بما لا يقل عن ٢٥٠ عاما .

لا يمكن ، في الواقع ، حصر إبداعات هذا الإنسان العظيم في مجالات العلم والفن ؛ علما بأنه عاصر عهدا شهد الانحلال يدب في مختلف مرافق حياة بلاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى أنه اضطر أن يقضي العقدين الأخيرين من عمره في الترحال والتجوال بحثا عن المكان المناسب لعمله وإبداعه مما أثر على نتاجه بشكل ملموس ، وذهب أخيرا إلى باريس تلبية لدعوة ملك فرنسا فرانسوا الأول حيث حظي برعايته الشخصية فقد خصص له قصرا بجوار قصره ، وكان يزوره غالبا بنفسه ويتقضي ساعات طوال في الحديث معه . ولكن لسوء الحظ لم يدم هذا التميم طويلا إذ وافى الأجل الفنان العبقري بعد سنتين بعيدا عن وطنه الذي رفع رأسه إلى العلا ، وكان آخر مائة له قبيل وفاته أنه أوصى بكل ما يملك لخادمه الذي ظل مخلصا له حتى الأخير .

(٢١) تم اختراع أول آلة طباعة في العام ١٤٦٧ .

الأصيلة التي عبر عنها بصدق وقوة في أبيات شعرية
جوابية تعليقا على الأبيات التي قالها الشاعر جوفانين
ستروتسي اعجابا منه بتمثاله الرابع « الليل » الذي
يمثل حسناء غارقة في النوم وقد بلغ اطراء الشاعر
لبراعة نحتها حد انه تصور انها ستنتطق فيما لو
استيقظت . واذا بنا نجد ميخائيل انجيلو المليء
بالحركة والحيوية يرى في رده « السعادة في النوم »
بل يرى سعادة اكبر في « ان تصبح حجرا » لان في
« هذا العصر المجرم المخزي » سيصبح « الموت
واللاشعور مصرا محسودا » ، لذا يتوسل الفنان
باسم الحسنة النائمة في دياجير الليل عدم ايقاظها
من نومها العميق (٢٢) .

كان من الطبيعي الا ينجو الفنان المبتدري
المتحرر من غضب المتخلفين فكريا في مصره ، فظل
الجواسيس يراقبون تحركاته كما عهد البابا الى احد
الرسامين باجراء « تعديلات » على التماثيل العارية
في بعض لوحاته فالتار ذلك الرسام المأجور بعمله
احترق المجتمع ونقمة الفنانين ضده . وقد بدا
ميخائيل انجيلو يشعر في مثل هذه الظروف بالوحدة
اكثر فاكتر فصار يبتعد بالتدريج عن النحت والرسم

(٢٢) راجع نص ابيات جوفانين ستروتسي ورد ميخائيل انجيلو
في : ١ . جوير ، الرجوع السابق ، ص ١٢٧ .

القائمة في التعبير عن رجال الماضي ، فجاء تمثاله
الرابع « داود » الذي قضى حوالي ثلاثة اعوام في
نحته من المرمر وبارتفاع بلغ اكثر من خمسة امتار
بمثابة صيحة مدوية بوجه القيم الجمالية والفكرية
للقرون الوسطى . وسار على نفس النهج في صنع
تماثيله الاخرى المعروفة « الرحمة » و « موسى »
و « العبد المقيد » و « العبد المحتضر » وغيرها .
وقد عبر في هذين الاخيرين ، وفي تماثيل اخرى له ،
عن وجولة الانسان البسيط المصر على الانعتاق من
اغلاله بشكل خلاق .

لم ترق تماثيل ميخائيل انجيلو الفنية وآراءه
الفكرية لاهل السلطة في بلاده ، ولا سيما انه كان
يميل بشدة الى الاتجاهات الجمهورية - الديمقراطية
التي كانت تعيش مرحلة صراع مريرة . وقد وقف
بحماس الى جانب النظام الجمهوري الذي انتصر
وقتيا في فلورنسا واشترك مع سكانها في الدفاع
عنها اثناء محاصرتها من قبل قوات البابا والجيوش
الاجنبية كرئيس للمهندسين المسؤولين عن صيانة
اسوار المدينة على مدى احد عشر شهرا من الحصار
المستمر . وبعد سقوط فلورنسا في العام ١٥٣٠
اضطر ان يهتفي ولم يزل عفو البابا الا بعد ان تعهد
بانجاز بعض الاعمال الفنية له ، لكن دون ان يقضي
ذلك الخضوع الاضطراري على مشاعره الداخلية

ارتبطت بأفكار الإنسانيين في لوحاته التي رسمها بطلب من البابا على جدران وسقوف أبنية الفاتيكان . وقد ذهب روفائيل الى حد ابعد من ذلك عندما عبر عن رجال الكنيسة انفسهم في اوضاع توحى بوضوح وكانهم حكماء العصر القديم يبحثون ويناقشون مثلهم ولكن في ملابس الرهبان . لم يتمكن روفائيل ، مع ذلك ، من التعبير عن كل ما كان يجيش في صدره من افكار الإنسانيين بسبب الارهاب المسلط بشكل متزايد على رقاب المفكرين الطليان ، لكنه اشترك بحماس في الحركة الوطنية التي كان استقلال الفكر ووحدة ايطاليا ضمن شعاراتها الاساسية .

ترك روفائيل ، بالرغم من قصر عمره (عاش ٢٧ عاما) ، مجموعة كبيرة من اللوحات الرائعة التي - على العكس من اعمال ليوناردو دافينشي - بقي معظمها حتى يومنا الحاضر وهي تزين الان قاعات اشهر المتاحف العالمية مع جدران وقبب كثيرة في الفاتيكان . تتميز لوحات روفائيل بقوة ودقة التعبير بدءا باعماله الاولى مثل « احلام فارس » ولوحاته الشجرية المتكاملة من جميع الواجه مثل « المدرسة اللاتينية » و « العذراء » و « العشاء الرباني » وغيرها . ولديه لوحات عديدة اظهر فيها مفاتن المرأة بشكل بارع . وعلى ما يبدو انه لم يرتو

وكرس الجانب الاكبر من العقود الثلاثة الاخيرة من حياته للفن المعماري ولقرص الشعر الذي تميز فيه كذلك بالعمق والتعبير التراجيدي الموفق ، فتكلم في قصائده عن الحب كتعبير عن تعلق الانسان بجمال الطبيعة كما وصف وحدة الفنان في محيط معاد وتطرق الى مواضيع اخرى كانت تعبر في مجملها عن خيبة مرة لاحد الإنسانيين الكبار العاجز امام زحف الظلم والحيلولة دون انتصار الارهاب بواسطة الافكار والقيم المثلى التي آمن بها كغيره من الإنسانيين البارزين .

روفائيل (١٤٨٢ - ١٥٢٠) :

ولد الرسام والمعماري الايطالي البارز روفائيل سانتى في مدينة اوربينو القريبة من فلورنسا وقضى سنوات عديدة من شبابه في الاخيرة حيث درس بعمق نشاطات من سبقوه هناك وبشكل خاص اعمال ليوناردو دافينشي كما اغنى تراثها الفني بابداعات جديدة ، ولكن ارتبط الجانب الاكبر من نشاطه بالعمل في مدينة روما .

اعطى روفائيل بدوره التراث الإنساني ورواده القدماء مكانة بارزة في اعماله ، حتى انه ابرز صور فلاسفة من امثال ارسطو وافلاطون وبطليموس وسقراط وغيرهم مع قضايا دنيوية كثيرة اخرى

ظل من بعدهم ، وسيبقى ، يخدم الانسان ، وهو مات شهيد
عليه تجارب الحياة الراضخة بشكل لا يدحض .

لم يقتصر التطور الفني في عصر النهضة على
وجهيه البارزين الرسم والنحت ، بل امتد كذلك الى
مجالات اخرى اهمها فن العمارة . فقد شهد عصر
النهضة ميلاد ائنية شامخة جديدة في طرز بنائها
تدخل اليوم بدورها ضمن الآثار الحضارية الخالدة .
ومما يجدر بالذكر في هذا الصدد ان سرعة الانجاز
تحولت الى مظهر مهم من مظاهر تكتيك البناء
الحديث . فقد غدا تشييد القصور الفخمة والكنائس
ذات القباب العالية المزخرفة بشكل دقيق يستغرق
سنوات عدة بدل العقود واحيانا القرون من الزمن
كما كان عليه الامر في السابق . ولا شك في ان كل
ذلك يشكل صفحات بارزة في حياة الانسان وتاريخ
تطوره .

تطور البحث التاريخي

يأتي التاريخ على راس قائمة العلوم الانسانية
التي تأثرت بأفكار النهضة ، وقد سبقت الاشارة
ضمن المواضيع السابقة الى نواحي مميته تتعلق
ببدا الامر . فان الاهتمام باحياء التراث القديم
كان يعني بحد ذاته لقاء اشياء كاشفة على صفحات
مجبولة من تاريخ أوروبا السياسي والثقافي

من جمال الطبيعة اللامحدود ، ففي احدي رسائله
يقول : ان التعبير عن حسناء يتطلب رؤية العديد
من الجميلات ، وبما ان مثلهن قلة والاختيار الموفق
لن يكون هينا يضطر الرسام الى التوسل ببعض
الفكر الذي يراوده ويحاول التعبير عنه (٢٢) . من
هذا يبدو واضحا ان روفائيل قد اطلق العنان احيانا
لخيال الفنان المبدع حتى يعطي نتاجاته بعدا جماليا
اعمق .

برع روفائيل سانتى في فن العمارة ايضا حتى
انه عين مسؤولا معماريا اوليا في بناية كنيسة القديس
بطرس المعروفة في روما قبل الانتهاء منها . وتشهد
آثاره المعمارية البارزة في ايطاليا اليوم على عبقريته
الاصيلة وتفوقه الكبير في هذا المضمار كذلك .

ظهر عباقرة آخرون كثيرون في مجال الابداع
الفني في عصر النهضة من امثال جوتو ودوناتيللو
وتيتيان وغيرهم الذين سجل التاريخ لهم ما اتوا
من الاعمال الفنية والفكرية بمداد من الفخر ،
خاصة وانهم انلحوا في تحويل الفن الى غاية تخدم
الفرد والمجتمع وذلك بتعبيرهم المباشر عن آمهسا
وأمالهما . ويكفي هؤلاء الخالدين ان الفن الاصيل

(٢٢) مقتبس من : ا . جوير ، ثقافة النهضة الايطالية ، ص ١٢٦

كويجارديني (١٤٨٢ - ١٥٤٠) مثلا هو اول مؤرخ درس تاريخ ايطاليا في اطار موحد على عكس المؤرخين السابقين الذين تعودوا على دراسة حكوماتها ومناطقها المختلفة كوحدات منعزلة . وبدافع من الشعور القومي ايضا بدأ المؤرخون الجدد يبحثون عن حلول عملية لمشاكل مجتمعاتهم السياسية ويحاولون معرفة الاسباب الطبيعية للاحداث التاريخية ومن هنا فانهم رفضوا تأثير « القسوى الغيبية » في خلق وتقرير مصر الاحداث وبدأوا يبحثون في دور الفرد المدرك (القادة والشخصيات التاريخية البارزة) في سير الاحداث . لكن لم يتجاوز سوى عدد قليل جدا من المؤرخين الانسانيين هذا الحد من التفسير البراغماتي للتاريخ . فان غايه ما عطلوه انهم بحثوا في العوامل المنطقية وغيرها التي كانت تحسرك القادة السياسيين . ففسى رأي كويجارديني ان اثنائية الافراد هي التي تختفي وراء الاحداث ولم يعط الجماهير اي دور / بل نظر اليها باختقار واضح عندما دعا صراحة الى ابعادها عن دست الحكم الذي يجب ان يقتصر - حسب رايه - على الفئات الاجتماعية العليا .

ومن الجدير بالذكر ان العديد من الانسانيين الذين اهتموا بقضايا الادب والفكر والفلسفة كانوا مؤرخين في نفس الوقت وقد قدموا خدمات جليلة

والاجتماعي في عهدي الرومان والافريق ، كما بدأ الاحتمام ، مثلما ذكرنا ، باثار الشرق فيربط ظهور الـ (Epigraphy) (دراسة النقوش والمنحوتات القديمة) كعنصر من عناصر دراسة تاريخ ما قبل الميلاد بعصر النهضة مباشرة . ولكن لم يقتصر الامر على هذه النواحي المهمة، بل طرا كذلك تغيير ملموس في اسلوب البحث التاريخي وفي نظرة المؤرخين الى الاحداث وموقع الفرد فيها . فقد ظهرت النظرة الانتقادية بالنسبة للمصادر والبحوث التاريخية المدونة مما أسهم بشكل جدي في الكشف عن جوانب الضعف الكبيرة التي تميزت بها الدراسات والتفسيرات التاريخية في المهور السابقة وفي اثبات حقائق تاريخية مهمة ادى بدوره الى تعرية الفكر الاقطاعي . فان لورينزو فالانبت بعد البحث المفصل والتمحيص الدقيق وبالاستناد الى براهين وادلة مقنعة زور « هبة قسطنطين » فجا عمله هذا بمثابة خطوة نوعية جريئة في مجال البحث التاريخي نحو الامام . وجرى لأول مرة في عصر النهضة تقسيم التاريخ الى القديم والوسيط والحديث . كما ظهرت في هذا العصر ايضا دراسات تاريخية من نوع جديد تهتم باحداث الوطن بشكل متكامل موحد وبمفاخر الماضي باسلوب متوافق مع الشعور القومي والوطني الذي طفا الى السطح . فان ف .



بحوالي عشرين سفرة دبلوماسية ناجحة التقى خلالها بشخصيات أوروبية مبهمة على رأسها ملك فرنسا لويس الثاني عشر والبابا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة مكسيمليان الاول وغيرهم .

بعد الاطاحة بالمؤسسات الجمهورية وعودة ميديجي في ١٥١٢ الى السلطة ابعث ماكيافيلي من منصبه وبعد فترة القى القبض عليه بتهمة الاشرار في مؤامرة استهدفت بمك النظام الجمهوري فنفى - بعد التعذيب - الى قرية قريبة من فلورنسا حيث قضى بقية حياته في البحث والتأليف تاركا وراءه عددا من المؤلفات التي تعتبر من اهم نتاجات عصر النهضة في حقل التاريخ والفكر السياسي ؛ لا سيما كتابه ذائع الصيت « الامير » الذي يعتبره معظم المؤرخين « نتاجا خالدا عن حق » من بين نتاجات النهضة الايطالية (٢٤) فيؤكدون على ضرورة «دراسته كعلم لا كدعاية» (٢٥) . ومن مؤلفاته المهمة الاخرى ايضا « فن الحرب » و « تاريخ فلورنسا » الذي يقع

مباشرة في مجال البحث التاريخي كما تشكل مؤلفاتهم الاخرى اليوم مصادر مهمة جدا للباحثين في التاريخ الاوروبي منذ اواخر العصر الوسيط . ولكن ظهر الى جانب هؤلاء عدد من الانسانيين الذين استحوذ التاريخ على انكارهم فخصصوا الجانب الاكبر من اهتماماتهم للبحث فيه ولدراسة احداثه . ويعتبر ماكيافيلي أبرز مؤرخ ظهر في ذلك العصر والذي لا يزال يتردد اسمه باشكال مختلفة وفي اوساط متباينة بأسلوب يسترعي الانتباه .

ماكيافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) :

ينتمي المؤرخ والمفكر السياسي المعروف نيكولو (نيقولا) دي بيرناردو ماكيافيلي الى أسرة فلورنسية نبيلة عريقة تدهور وضعها الاقتصادي الى حد الانحلال قبل مجيئه الى الحياة . بعد طرد الأسرة الحاكمة ميديجي من فلورنسا واعلان النظام الجمهوري فيها عام ١٤٩٨ تعاون ماكيافيلي بحماس مع النظام الجديد وشغل منصب سكرتير مجلس العشرة الذي كان يشرف على قضايا الدفاع والسياسة الخارجية لجمهورية فلورنسا . ومع انه لم يدخل ضمن كبار المسؤولين الا انه تمكن بذكائه ونشاطه الكبيرين من ترك اثر واضح على حياة فلورنسا السياسية في عهدهما الجديد . فقد قام

R. Palmer and J. Coiton, Op. Cit., (٢٤)
P. 55.

"Renaissance and Reformation 1300- (٢٥)
1648", P. 109.

السبل كاستخدام القوة التي تشكل - كما كان يؤكد - أساس الحق ، والقسوة والافتتال وخيانة العهد والقسم والتوسل بالتضليل والرشوة والركون الى الخديعة والكذب والتفاق ، اي ان الغايات السامية تبرر الوسائل ايا كانت . وهو كان ينصح حكام ايطاليا بالا ينجحوا من اختيار اي اسلوب مهما تدنى لتحقيق اهدافهم وطموحاتهم السياسية ، فالحاكم الناجح هو الذي يلجأ الى الاساليب الانسانية والحيوانية حسب الظروف والحاجة ويعرف كيف يجمع بين خدع الثعالب وفورات الاسود لان المحك والاساس لتقييم السياسة هو النجاح . وعلى هذا الاساس ظهر فيما بعد مصطلحا «الماكياڤلية» و «الماكياڤلي» وتطلق الاولى عادة على السياسة التي لا تعير القيم الاخلاقية اي اعتبار وبتطلق الثاني على الشخص الذي يتبنى مثل تلك السياسة .

لكن يجب النظر الى ماكياڤلي من زاوية اخرى تماما . فهو كان ، قبل كل شيء ، وطنيا مخلصا يتحرق شوقا الى تحرير بلاده - التي احبها اكثر من روحه كما جاء في احد رسائله الخاصة (٢٧) - من الغزاة وتحقيق وحدتها وبعث مجدها الغابر ،

E. Chabod, Machiavelli and the Renaissance, Cambridge, 1960, P. 141. (٢٧)

في ثمانية مجلدات وقد كرس في الواقع لمجمل تاريخ ايطاليا السياسي ويعتبر بحكم تعمقه في تقييم الاحداث السياسية ومن حيث اسلوبه الدراماتيكي وقوة لغته « واحدا من اعظم مكاسب الدراسات التاريخية الحديثة » (٢٦) وهو لم يفقد اهميته حتى اليوم بالرغم من بعض الاخطاء التي وقع فيها المؤلف عند روايته لعدد من الاحداث التاريخية .

اعتبر ماكياڤلي في البداية ، الجمهورية نظاما امثل للحكم وخدمها بصدق في مطلع حياته العملية ؛ لكن بعد تحليله للاوضاع القائمة في ايطاليا التي تميزت باستفحال الحروب والخلافات بين مدنها ومقاطعاتها وبالضعف المتناهي الذي جعلها حذفا سهلا للغزو الاجنبي المستمر توصل في «الامير» الى الاستنتاج بان خير نظام يمكنه تحقيق وحدة ايطاليا والذود عنها هو ذلك النظام الذي يستند الى سلطة مركزية دكتاتورية مطلقة قوية لا تقف نسي سبيلها الاعتبارات الدينية والدينية والاخلاقية . فان مصالح الدولة العليا ، وبوجه خاص وحدة البلاد ، تبرر في رايه لجوء الامير او الملك الى جميع

(٢٦) و . ل . فاينشتين ، علم التاريخ الاوروبي الغربي في العصر الوسيط ، باللغة الروسية ، موسكو - لينينغراد ، ١٩٦٢ ص ٢٧٩ .



بإمكان الظليان «رفع كرامتهم عاليا امام أوروبا» (٢٦)
وليحقق الأمير الجديد ذلك الواجب الإقدس كان
عليه أن يعترف في نفس الوقت كيف يختار اعوانه
المقربين من بين الناس القديرين والمخلصين ممن
لا يعرفون التزلف والتملق فيتحولون الى سند أمين
لحكمه ، ولكن عليهم ان يعلموا ان وزنهم انما يعتمد
على الموقف الذي يتبناه الأمير على ضوء اخلاصهم
وتفانيهم له ولنظامه .

لعبت اراء ماكيافيللي السياسية دورا مهما
في تطوير الدراسات التاريخية ونظرياتها ، فقد تخطى
في بحوثه حدود التفسير البراغماتي للأحداث نسي
وقت مبكر وبدا ينظر الى الدولة وقوانينها نظرية
واقعية نابعة من التجربة والتحليل لا من اللاهوت
ونظرية الحق الإلهي في الحكم ، آمن بحتمية الأحداث
التاريخية وبالترابط فيما بينها بغض النظر عن ارادة
المشاركين فيها . وتوصل الى الرأي بان الصراع
السياسي هو المحرك الاساس للتاريخ وغالبا ما يتخذ
ذلك الصراع طابعا اجتماعيا وطبقيا ما دام يوجد
— كما ذكر في كتاباته — تناقض مستفحل بين مصالح
الشعب والفتات المالكة . ففي كتابه الضخم «تاريخ
فلورنسا» يتتبع النضال بين الجماهير والارستقراطية

Ibid, P. 135; R. Palmer and J. Col- (٢٧)
ton, Op. Cit., P. 55.

فوضع بالاستناد الى تحليل واقع ظروف ايطاليا
وحبه الجامح لها والى تجاربه العملية الفنية نظرية
رسيئة ذات اسس واقعية كان لا بد من الركون
اليها في حالة العمل الجاد على طريق الوحدة
والتحريرو انذاك . فقد وقف بشدة ضد سياسة
الانطباعيين والبابوية لانه اعتبرهما من اهم العراقيل
التي تحول دون تقدم عملية التوحيد السياسي
واعتبر تعاليم الكنيسة بمثابة عيب يحول دون
الابداع النشط للانسان . الا ان هذا لا يعني ان
ماكيافيللي كان يناهض الدين ؛ بل على العكس من
ذلك انه كان يؤمن بإمكانية تحويله الى اداة سياسية
فاعلة في حياة الشعب (٢٨) .

انتقد ماكيافيللي بشدة النظام العسكري
القائم في البلاد لاعتماده على المرتزقة الوقتيين الذين
وصفهم كحشالات المجتمع لا يهمهم سوى النهب
فدعى الى تأسيس جيش منظم دائم يعتمد على
التجنيد العام للشباب حتى يتحول الى قوة تحرير
وردع حقيقية بيد الأمير الدكتور . فقد كان
ماكيافيللي يحلم مخلصا بان تتحرك جيوش المدن
الاطيالية « بدافع الاهداف الوطنية » كي يفسدو

Ibid, PP. 95-96. (٢٨)

للديمقراطية وتخوفه من الجماهير التي « تنجرف بسهولة مع الغامرات » حسب رأيه وكان يصفها بـ « السواد » أو « العوام » (Plebs) وقد عبر عن موقف عدائي صريح نحوها من خلال تقييمه لبعض الانتفاضات الجماهيرية التي وقعت في إيطاليا . وبحكم ذلك فان مكيافيلي يتوجه في جميع مؤلفاته الى الامراء واصحاب الكلمة واصدقائه المفكرين ويكتب لهم لا للجمهور (٤١) .

لا تنتقص هذه النواحي السلبية الواردة في افكار مكيافيلي من اهميته كمؤرخ وكوطني مخلص لبلاده خاصة اذا قيمت بشكل صحيح في اطار زمانها ومكانها ودوائعها الاصلية لا الشكلية . وفي الواقع شوه «الماكياثليون» سمعة مكيافيلي الى حد كبير . فقد تهجم عليه بعض الحكام الذين تعدوا في سياساتهم اليومية الامير النموذج لدى مكيافيلي باشواط بعيدة ومنهم الملك البروسي فردريك الثاني الذي كرس - مع ذلك - كتابا خاصا « لدحض » آراء مكيافيلي الفه في سنة تسنمه للعرش (٤٢) .

«The Civilization of the Renaissance in Italy», An Essay by J. Burckhardt, New York and Toronto, P. 93.

(٤٢) عنوانه « ضد مكيافيلي » وقد الله في العام ١٧٤٠ .

على طول مسيرة تاريخ ايطاليا . ومن هنا ، اي من خلال بحثه عن العوامل المحركة للاحداث التاريخية بغض النظر عن ارادة الافراد الصرفة ، تخطى مكيافيلي مؤرخي عصر النهضة وتقدم عليهم .

كان مكيافيلي يمثل في آرائه الفكر البورجوازي النامي الطموح وقد مجد في كتاباته التجار والحرفيين المتحكنين من سكان المدن الايطالية الذين يصفهم بالشعب (Popolo) ودعا الامير الى الاهتمام بهم وتهيئة الاجواء التي من شأنها تطوير مصالحهم والترفيه عنهم . الا ان البورجوازية الايطالية قد توقفت عن النمو بسرعة بعد ميلادها المبكر فهي بدأت تعيش ازمة جديدة قبل وفي عهد مكيافيلي لذا ظلت ضعيفة ولم تستطع ان تتحول الى القوة الجديدة للاضطلاع بالمهام الجسيمة التي كانت تنتظرها في ظروف ايطاليا الصعبة . وكان من الطبيعي ان ينعكس ذلك في آراء مكيافيلي المتحمسة للنظام الملكي المطلق مما كان يعني في الواقع نوعا من التساوم مع الفكر الاقطاعي (٤٠) ، وفي معاداته

(٤٠) ظهرت أنظمة الحكم المطلق في أوروبا في اواخر العصر الوسيط وجاء ظهورها في توافق مع متطلبات المرحلة التاريخية مع انها لم تكن في واقعها سوى أعلى أشكال النظام السياسي للاقطاع ، وهي لم تفقد في عهد مكيافيلي جوانبها الايجابية بعد .

العديد من المؤرخين البورجوازيين ، لا سيما علماء الاجتماع الفاشيون ، على نظريته حول السلطنة الدكتاتورية المطلقة بشكل مجرد وسكوتهم المطبق عن أفكاره حول النظام الجمهوري الذي أقر بانه خير نظام للحكم لان في ظله تقرر الكفاءة ، لا الوراثة ، من يستحق تبوء السلطة . ولكن بلغ تمجيد النازيين والفاشيين لماكيافيللي ، بالرغم من ذلك ، حد ان هتلر كان يضع كتابه « الامير » الى جانبه في مكتبه كما كتب موسوليني رسالة حول نفس الكتاب لنيل درجة الدكتوراه وقد مجد فيها ، وفي تعليق آخر كتبه حول نفس الموضوع بعد تسلمه للسلطة ، موقف ماكيافيللي من حكم الفرد المتسلط فخلص الى القول « ان مذهب ماكيافيللي حي اليسوم بعد اربعة قرون » (٤٤) !! .

هكذا تعرض ماكيافيللي الى هجوم الكثيرين ، كما انبرى آخرون للدفاع عنه من منطلقات غير علمية فقد اعتبروه اكثر الناس صراحة لان « كل انسان ماكيافيللي في ذاته » كما كانوا يؤكدون في معرض دفاعهم عنه . لكن يخلط هؤلاء واولئك بين ماكيافيللي

ومن جانب آخر حاول العديد من الحكام الدكتاتوريين في ازمئة مختلفة وفي ظروف متباينة وتربة تختلف كل الاختلاف عن تربة ايطاليا القرن السادس عشر استغلال جوانب معينة من آراء ماكيافيللي لمصالحهم الضيقة التي تجسدت في الاستئثار بالسلطة . وكان الزعيم الفرنسي المعروف ريشليو (١٥٨٥ - ١٦٤٢) الذي حقق نجاحات سياسية مشهودة ، اول شخصية مستبدة وجد في نفسه الجراءة الكافية ليعترف صراحة بانه مدين في الكثير من آرائه ومواقفه لماكيافيللي ، اما البقية فقد طبقوا ما نادى به ماكيافيللي عمليا واستنكروه نظريا ، وغالبا ما قاموا بتطبيق آرائه في ظروف تختلف كليا عن الظروف التي ولدت افكار ماكيافيللي ومن اجل اهداف تختلف عن تلك التي توخاها هو .

ومما زاد في الاساءة الى سمعة ماكيافيللي وازائه ، موقف الكنيسة المادي منه وقرارها حول منع تداول كتبه علما بانه الف « تاريخ فلورنسا » تلبية لطلب البابا نفسه (٤٢) . واساء اليه ايضا تاكيد

(٤٢) من الطريف ان نذكر ان الكنيسة اصدرت في العام ١٥٥٩ امرا يقضي بحرق نموذج ماكيافيللي ، بينما طبعت روما مؤلفاته وهرقت كوميدياته بحضور البابا نفسه قبل ذلك بحوالي ربع قرن فقط .

(٤٤) نيقولو ماكيافيللي ، الامير ، تعليق بيتو موسوليني ، مقعدة كريستيان غاوس ، ترميبا خيرى حماد ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٠ ، ص ٦ .

الكلمات المعبرة التي حفرت على شاهد ضريحه في فلورنسا تخليداً للذكراه :

« انى للمديح ان يفى هذا الاسم حقه »

لم يكن ماكيافيللي الوحيد من بين اعلام النهضة الذي اصطدم بالواقع ، فقد شاركه في ذلك انسانيون آخرون عاصروا المرحلة الاخيرة من النهضة .

الاصطدام بالواقع

تحولت الاراء المثالية السامية والتوجهات الانسانية لرجال النهضة وابداعاتهم الى محرك مهم للحركة الفكرية الاوروبية ووضعت بدايات جديدة لانطلاقات اعمق فيما بعد الا انها لم تستطع تحقيق آمالهم الواسعة خاصة ما كانوا يتصورونه من انعقاد حقيقي للانسان وللقيم مع انحسار ظل المجتمع الاقطاعي . فكان لا بد للجيل الاخير منهم من الاصطدام بالواقع بعد ان بدأ تطور العلاقات الرأسمالية في القارة الاوروبية يؤدي الى حدوث احتدام التناقضات الاجتماعية التي انعكست في استقطاب الفئات المختلفة وفي ازدياد دور النقود وفي ظهور اساليب اكثر مكرماً من اجل تحقيق الغايات . وقد جاء التعبير عن هذا الواقع بشكل واضح فينتاجات ادبيين بارزين عاصروا المرحلة الاخيرة من النهضة هما

المؤرخ والماكياثيلية ، وفي تقييماتهم لافكاره يتعمدون عن الاطار الواقعي الذي عاش الرجل فيه مراقباً الاحداث من خلاله ومقيماً ايها عبر محاولة مخلصة لايجاد حلول تراءت له ، بسلبها وايجابها ، خير سبيل لتحقيق غاية نبيلة توخاها عن ايمان وادراك عميقين ، فكان ماكيافيللي ابن عصره ومجتمعه . وليس عيباً ان اهتدى بافكاره واستفاد منها او اشاد بها ابرز المفكرين والساسة منهم الفلاسفة ماركس وديكارت ويكون والساسة الوزير الفرنسي الاول ريشيليو - انجح ساسة اوروبا في النصف الاول من القرن السابع عشر - والملكة الانجليزية الزابث الاولى التي يصف المؤرخون عصرها عادة بالعصر الذهبي ونابليون بونابارت الذي قرأ « الامير » بامعان وعلق عليه ويتوقع بانه ترجمه الى الفرنسية كذلك .

يجدر بنا ان نشير ايضا الى ان ماكيافيللي كان ذا باع طويل في الادب ، فقد خلف من بعده عدداً من الاناشيد والقصائد والرسائل والكتابات الثرية التي انتقد فيها بشدة تقاليد المجتمع البالية مع سلبيات الكنيسة وقد اغنى بها الادب الايطالي بقوة ووضوح وعمق ادائها السلس البعيد عن الاسهاب والاطناب . وحسبنا اننا لا نبتعد عن الواقع اذا قلنا ان مؤرخ عصر النهضة الكبير يستحق بجدارة

شكسبير الانكليزي وسيرفانتس الاسباني وقد بلغ كلاهما ذروة مجده في اواخر القرن السادس عشر واولئل القرن السابع عشر وقد توفي كلاهما في نفس العام .

شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) :

ولد الشاعر الانكليزي الكبير والروائي العالمي البارز وليام شكسبير بمدينة ستراتفورد في عائلة حرفية . درس النحو واللغة في مدينته ، ولكن ما تلقاه من التعليم كان محدودا فقد اضطر الى ترك الدراسة في الرابعة عشرة من عمره ليساعد والده الذي الت به ضائعة مالية . انتقل في بداية شبابه الى لندن وبدأ يعمل ممثلا في أحد مسارحها ويعيش على ما يدره عليه من مورد قليل مع مورد اقل كان يأتيه من كتاباته لبعض النصوص المسرحية .

لا تتوفر معلومات كثيرة عن تاريخ حياة شكسبير مما اعطى المجال لظهور بعض الآراء غير العلمية منذ اواسط القرن التاسع عشر تنكر وجود شخصيته وتحاول تصوير نتاجاته وكأنها من تأليف اناس آخرين مثل الفيلسوف يكون وبعض ادباء ذلك العصر والارستقراطيين المولميين بالادب . وكانت حجة معظم اصحاب مثل هذا الرأي هي استحالة كون اعمال عبقرية مبدعة كتلك التي كتبها شكسبير

١٣٤

من نتاج ممثل بسيط لم ينتم الى وسط اجتماعي ارستقراطي ولم ينل ثقافة جامعية رفيعة .

يعتبر شكسبير بحق ابن الشعب ، خدم الادب والمسرح بصمت ، ففي اعماله ال ١٥٤ ومسرحياته ال ٣٧ قلما يتطرق الى ذاته بينما يلتجئ الى تقاليد المسرح الشعبي والشعر الشعبي الانكليزي والاساطير التاريخية ليعالج من خلالها المشاكل المعاصرة . فيدور الهدف البعيد من مضمون معظم قصصه التاريخية المبكرة حول ضرورة وجود حكومة موحدة قوية تتمكن من القضاء على التسيب الاقطاعي . ومع انه فضل النظام الملكي على الجمهوري ولم يتشكك في امتيازات النبلاء الا انه ظل واقعا في كتاباته ، فقد اراد ملكا يضمن حكمه وحدة البلاد واستقرارها، ملكا حكيما انسانيا كان هنري الخامس نموذجه في ذاكرة الشعب ومن خلالها في قصص شكسبير التي تفضح بنفس الدوافع الملوك الضعفاء من امثال هنري السادس وريتشارد الثاني والملوك المستبدين من امثال ريتشارد الثالث والملك جون . وفي كل الاحوال يحاول الكاتب التعبير من خلال قصصه الدرامية التاريخية « هنري الخامس » و « هنري السادس » و « ريتشارد الثاني » و « ريتشارد الثالث » و « الملك جون » وغيرها التعبير عن نظرة

١٣٥

الشعب الانكليزي تجاه انظمة هؤلاء والاحداث التي وقعت ايام حكمهم .

انعكست في الواقع المرطتان الثانية (اي مرحلة التكامل) والثالثة (اي المرحلة المتأخرة) من افكار عصر النهضة والحركة الانسانية في مؤلفات شكسبير . ففي نتاجاته المبكرة نسبيا مثل « روميو وجوليت » و « حلم في منتصف ليلة صيف » و « تاجر البندقية » تطفئ فكرة انتصار الانسان على قوى الشر والتخلف . ولكن في كتاباته الدرامية المتأخرة التي تعود الى بداية القرن السابع عشر تتعمق المآسي كتعبير عن التناقضات الاجتماعية التي بدأت بدورها تتعمق اكثر فاكثر . ففي « هامليت » و « عطيل » و « الملك لير » و « تيمون الاثيني » وغيرها يكشف شكسبير عن الهوية العميقة بين آمال وامنيات رجال النهضة وواقع الحياة والمجتمع . فقد حاول ابراز جوانب ذلك الواقع من خلال التاكيد على دور المصالح الذاتية في تحريك الناس وتبيان الصراعات التي يصبح البسطاء والطيبون فيها ضحايا اصحاب القوة والجاه . انه ينظر من خلال « هامليت » مثلا الى خدع الحياة اذ لا تعكس تراجيديا بطل القصة سوى مأساة انسان طيب يصطدم بشرور المجتمع . ويتجسد الاصطدام

بالواقع بشكل اعمق في « تيمون الاثيني » (٤٥) ، فقد عبر شكسبير بجلاء من خلالها كيف ان قيمة الفرد في المجتمع الجديد لا تعتمد ايضا على صفاته الشخصية بل أصبحت تعتمد على امكاناته المادية . فان تيمون الثري كان محترما لدى الناس ، ولكن عندما افلس ابتعد عنه الجميع . ان آهات تيمون بعد افلاسه انما هي تعبير صادق عن سحر وقوة الذهب الذي « يجعل من القبح جمالا » و « يقلب الكذب صدقا » و « يعيد الشيخ شابا » ، فهو « اجمل هدية للعيون الغانية » وبريقه « يفوق كل شيء كالنار الموقدة » ولا « فتاة لا تفتح صدرها لستقبل حبيبا جميلا كهذا ينساب من السقف » .

وعندما يرى تيمون كيف ان بمستطاع الذهب ان يجعل من الانسان عبدا ، ينقلب من عنصر اجتماعي مرح الى شخص منزو ، حاقد على جميع الناس الذين تحولوا في نظره الى « العوبة في يد اصحاب الذهب » ، فغدا « التفاضل عن جميع البشر » و « احتقار كل الناس » ناموسه « لما تبقى له من ايام » ، واصبحت « الصداقة والشفافة والمجتمع والرحمة » في نظره مجرد « كلمات فارغة »

(٥) نشر الدكتور عبدالواحد للؤلؤ الترجمة العربية لهذه المسرحية المعبرة في الاونة الاخيرة (الكويت ، ١٩٧٧) .



سير فانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦) :

يعتبر سير فانتس ابرز كاتب ظهر في اسبانيا ،
وضع بكتابه اسس اللغة الادبية الاسبانية الموحدة
وساهم في تطوير الادب العالمي .

عاش سير فانتس في شبابه في ايطاليا ووقع
في اسر القراصنة الجزائريين ، وقد حاول خلال
سنوات خمس التخلص بثتى الاساليب الجريئة من
الاسر . بعد عودته الى اسبانيا عمل موظفا وجاب
في مناطق مختلفة من بلاده التي بدأت تمش فترة
تدهور وانحلال فاطلع عن كتب على الوضع السيء
للناس وعلى ما كانوا يعانونه من ضغط الكنيسة
ومحاكم التفتيش التي تحولت الى عبء ثقيل على
الحركة الفكرية الاسبانية . وقد دخل سير فانتس
نفسه السجن مرتين بتهم ملفقة حتى انه بدأ بتأليف
كتابه المعروف « دون كيخوت » او « دون كيشوت »
داخل السجن وهو عبارة عن قصة واقعية تعبر عن
روح عصر كاتبها البعقري بأسلوب رائع .

يحلم بطل القصة دون كيخوت باحياء الفروسية
في وقت ولي عهدا ، فهو الوحيد الذي لم يفهم
هذه الحقيقة لذا يظهر في ثوب مضحك امام القاريء .
وهو كان يحاول تفسير الواقع بأساليب اقطاعية .
ففي العهد الاقطاعي كان كل شيء يعتمد على قبضة

و « القريب والجار والمواطن » « أسماء ميتة لا خير
فيها » . فلا عجب ان يتمنى ذلك الانساني النبيل
المعاصر في الثوب الاثيني القديم « استنزال الوباء
على الارض » بمد اصطدامه بالواقع وفهمه لسحر
المال الذي يجمل من اللاهثين وراءه ان « يسرقوا
من الشحاذ كلبه » .

« لدي شجرة ، تنمو هنا في ياوتي
وتدفعني الحاجة الى قطعها ،
وعلي ان اسقطها قريبا . قل لاصحابي ،
قل لاهل ائتنا ، حسب تسلسل المراتب
من الرفيع الى الوضيع جميعا ، بان من يرغب
في قطع بلاياه فليتعجل
ويات هنا ، قبل ان تمس شجرتي الفاس ،
ليشتق نفسه .. »

يمثل هذه الاستعارة الرائعة والعميقة يعبر
« تيمون » عن واقع مؤلم لم يدركه الا بعد ان ادى
به « التبذير الى الشحاذة » بحيث « يكاد اصحابه
لا يعرفونه » ويكاد لا يحظى « بنظرة من الناس
الذين كانوا يوما يتملقون ويتعشقون ويتملقون
بايماءة » منه .

عبر سير فانتس عن نفس الواقع تقريبا ، ولكن
باسلوب آخر تماما .



خاتمة

من كل ما تقدم يبدو واضحاً ان النهضة تشكل نقطة وهاجة في حضارة الانسان وفترة مليئة بالدروس والعبر والانجازات الرائعة ، وهي لذلك جديرة بالفهم والتقصي . ومع ان النهضة تعتبر من المواضيع التي لقيت اهتماما واسعا من لدن مئات المؤرخين وغيرهم ، الا ان المجال لا يزال مفتوحا لاضافات جديدة الى ذلك البحر الزاخر . وبوسع الشرقيين ان يدلوا بدلوه في هذا الميدان الرحب بوضع اليد على جذور جديدة لمقومات النهضة . واغلب الظن سيكون في الامكان تحقيق ذلك الهدف العلمي الرفيع بعد مسح علمي شامل للمخطوطات العربية الاسلامية الفنية التي لاتزال اكداس منها تنتظر التحقيق العلمي الجدي وبالعودة الموضوعية الى المصادر الاوروبية الاصلية حول هذا الموضوع.

الاقوياء ، وها هو دون كيخوت يحاول تغيير الواقع بقوة يده فيدافع عن الثكالي واليتامى وبمقاييس الاشرار ، ولكن لا يستطيع في الواقع ان يفعل شيئا بل يتسبب في انتشار الفوضى ويجلب الضرر لبعض الناس . الا ان دوافعه كانت نابعة من حب الخير والانسان ، فهو مدافع امين عن الحرية والعدالة ، وحامي المحبين ، والمعجب الولهان بالعلم والشعر . اذن لم يكن هذا الفارس الشهم سوى انساني اصيل . فمثلته العليا مليئة بافكار معاداة الاقطاع التي سادت عصر النهضة والتي ولدت في خضم الصراع ضد قيم المجتمع الاقطاعي . ولكن المجتمع الذي جاء كبديل له لم يستطع تحقيق احلامه المثالية ، فيتهكم الفلاحون الاغنياء القساة والتجار من دون كيخوت ويضحكون على محاولاته للدفاع عن الفقراء والضعفاء وعلى طبيئته وانسانيته . هكذا عبر سيرفانتيس بعبقريته عن الواقع وعن موقف الفئات الجديدة وعن صراعات المجتمع التي تعجز القيم المثالية والاحلام الرومانسية من معالجتها .

نال كتاب « دون كيخوت » شهرة واسعة ، فقد ترجم الى عدد كبير من اللغات واعيد طبعه عشرات المرات وعلى مدى قرون طويلة وذلك لما كان يتميز به من تعبير سلس وعرض كوميدى اخاذ.



المراجع

المحتويات

٣	١ - مقدمة
	٢ - الفصل الاول
٥	اوربا على مشارف عصر جديد
	٣ - الفصل الثاني
	النهضة . . اطارها الزمني وخصائصها ١٥
	٤ - الفصل الثالث
٤٦	نتائج النهضة
	٥ - الفصل الرابع
٦٦	الخالدون
١٤٢	٦ - المراجع

الى جانب المراجع التي وردت اسماؤها ضمن
هوامش الكتاب يمكن الرجوع كذلك الى المؤلفات
التالية :

Gilmore R., The World of hummanism,
1453-1517, New York.

Hay, D., The Italian Renaissance in its his-
torical background, Cambridge, 1968.

Laven P., Renaissance Italy 1464-1524,
London, 1966.

Schweitzer F, Dictionary of the Renaissance.
Singleton Ch., Art, Science and History in
the Renaissance, Baltimore, 1967.

"The Civilization of the Renaissance", New
York, 1959.



٦ - انغولا . . . الثورة وابعادها الانثوية حلمي شعراوي

١- معالجات تخطيطية تظاهرة التحول الحضري
 د . حيدر كمونة

١١- مصادر الطاقة د . سلمان رشيد سلمان

١٢- التراث العربي كمصدر في نظرية المعرفة
 والابداع في الشعر العربي الحديث طراد
 الكبيسي

١٣ - التقدم العلمي والتكنولوجي ومضامينه
 الاجتماعية والتربوية . د . نوري جمفر

١٤ - الثقافة والتنظيمات الشعبية عبد الفنى عبد
 الغفور

١٥- العوامل المحفزة لنمو الدخل القومي د . كاظم
 حبيب

١٦- فن كتابة الاقصوصة ترجمة: كاظم سعدالدين

١٧- الاعلام والاعلام المضاد صاحب حسين

١٨- استثمار المواد الكيماوية والعضوية الملوثة
 للبيئة د . طارق شكر محمود

١٩- مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية
 د . هاشم الطمان

صدر من الموسوعة الصغيرة

١ - العرب والحضارة الاوربية . د . فيصل
 السامر

٢ - فلسفة الفيزياء د . محمد عبد اللطيف مطلب

٣ - الحقيقة الاشتراكية لحزب البعث العربي
 الاشتراكي الفكر والتطبيق عزيز السيد جاسم

٤ - قضايا المرح المعاصر . سامي خشبة

٥ - الصناعات البتروكيماوية ومستقبل النفط
 العربي د . محمد ازهر السماك

٦ - الثورة والديمقراطية صباح سلمان

٧ - دانتي ومصادره العربية والاسلامية عبد
 المطلب صالح

٨ - الطب عند العرب د . عبد اللطيف البديري

- ٢٠- الانسان - اخر المعلومات العلمية عنه ترجمة
واعداد : كاميران قره داغي
- ٢١- كتابة الشعر في المدارس ترجمة : طه ياسين
حافظ
- ٢٢- من عصر البخار الى عصر الليزر د . اسامة
نعمان
- ٢٣- الاتصال والتغير الثقافي هادي نعمان الهيتي
- ٢٤- المدخل الى الفكر الفلسفي عند العرب
د . جمفر آل ياسين
- ٢٥- الصهيونية ليست حركة قومية بديعة امين
- ٢٦- الدفاع المدني الشعبي صالح مهدي عماش
- ٢٧- النسبية بين نيوتن وانشتاين د . طالب ناهي
الخفاجي
- ٢٨- فن التمثيل عند العرب د . محمد حسين
الاعرجي
- ٢٩- الموسيقى الالكترونية على الشوك
- ٣٠- دراسة في التخطيط الاقتصادي د يحيى علي
النجار
- ٣١- الرواية العربية والحضارة الاوربية شجاع
مسلم العاني
- ٣٢- نقد الفكر البرجوازي ترجمة يوسف عبد
المسيح ثروة
- ٣٣- الطاقة وآفاقها المستقبلية عادل كامل جميل
- ٣٤- فن الترجمة ترجمة د . حياة شرارة
- ٣٥- صورة الكون . د. محمد عبداللطيف مطلب
- ٣٦ - اتجاهات النقد الادبي الفرنسي المعاصر .
نهاد التكرلي

